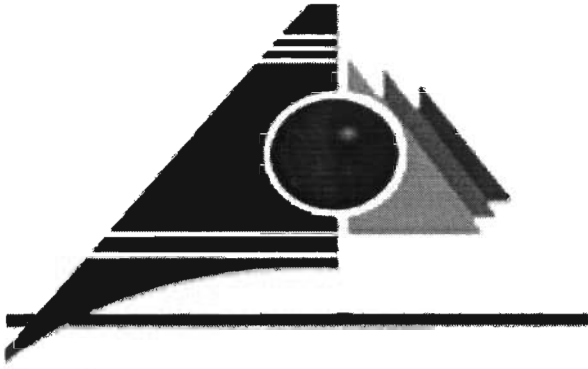




مدخل في نقد الشعر

القديم والوسيط

أحمد درويش

لغة الضاد .. لغة أحمد درويش

حلقات تلفزيونية لطلاب التعليم العالي

مدخل فى نقد الشعر القديم والوسيط

دكتور / أحمد درويش

" بسم الله الرحمن الرحيم "

فى خريف ١٩٨٥م ، أسندت الى مهمة اعداد وتقديم سلسلة من الحلقات الثقافية فى التلفزيون المصرى . ليتم تقديمها من خلال القنوات الأولى والثانية فى اطار " جامعة الهواء " بهدف " تأهيل المعلمين " الذين يتابعون هذه البرامج ويحصلون من خلال المتابعة والامتحان على شهادة جامعية عالية .

وكان من شأن هذه الحلقات أن تغطى مستويين من مستويات دراسة هذه الجامعة هما المستوى الأول الذى يهتم بالأدب الجاهلى والإسلامى ، والمستوى الثانى الذى يهتم بالأدب الأموى والعباسى ، وفى سبيل أداء هذا الهدف اختارت هذه النقاط الثلاثة عشر لأدير حولها الحديث الذى حاولت أن لأجعله موجهاً فحسب الى طلاب " جامعة الهواء " ولكن الى المهتم بالأدب العربى ونقده والذى يتباح له اشباع جانب من رغباته الثقافية من خلال متابعة الشاشة الصغيرة .

لقد كانت الفترة الزمنية المحددة لكل حلقة ، وهى نصف ساعة ، دافعة الى لون من التركيز يشير الى رؤوس المسائل دون أن يدخل فى تفاصيلها ، لكنه يحرص على أن يرسم " وجهة نظر " يمكن من خلالها المضى والمتابعة ، وكانت طبيعة الأداء من خلال الشاشة ، وبالتنسيق مع المخرج ، تقتضى البعد عن الاقتباسات وعدم ذكر المراجع وهى أشياء ربما تتطلبها طبيعة الدراسة التى تعد لتقرأ ، ولقد قدمت هذه الحلقات بالفعل فى شتاء وربيع ١٩٨٦م ، وأعيد تقديمها فى عام ١٩٨٧م ، ووجدت قبولا أعترز به من زملائى وأساتذتى فضلاً عن جمهور الدارسين .

وها أنا أطرح " المادة الخام " لهذه المحاضرات دون تعديل أو إضافة ، آملاً أن تكون التصورات والآراء التى وردت بها موضعاً للمناقشة والتصويب أو الافادة مما يعود بالخير علخ تراثنا الأدبى والنقدى الذى ننتمى اليه ونعتز به .

وعلى الله قصد السبيل ،،،

أحمد درويش

المحتويات

صفحة

- مدخل لقراءة الشعر الجاهلي: الفن وعناصر التبليغ والخلود..... ١
- امروء القيس والظما الى الحب والموت ٧
- الأعشى صناجة العرب ١٥
- شعر الصعاليك ٢٣
- عصر صدر الاسلام والعصر الأموي - الخريطة السياسية والاجتماعية
والثقافية ٣٠
- مقاييس جمال النص في صدر الاسلام وموقف الاسلام من الشعر ٣٦
- الغزل في العصر الأموي ٤٢
- الغزل العذري ٤٨
- مدخل لدراسة الأدب في العصر العباسي ٥٦
- ترجمة شخصية أدبية : عبدالله بن المعتز ٦٣
- مدخل لدراسة الأدب الأندلسي ٦٩
- مدخل لدراسة النقد الأدبي عند العرب ٧٦
- نظرية الأسلوب في البلاغة العربية ٨٢

الحلقة الأولى

مدخل لقراءة الشعر الجاهلي
الفن وعناصر التبليغ والخيال

قدمت في ٢٩ يناير ١٩٨٦م

مدخل لقراءة الشعر الجاهلي
الفن وعناصر التبليغ والخيال

أدركت الجماعات البشرية في الحضارات القديمة بفريزتها أن عمر الإنسان الفرد أقصر بكثير من أن يحقق جزءاً من معنى الطموح للخلود الذي يحلم به الإنسان الروح . والكائن المتميز على سطح الأرض ، ومن ثم فقد لجأت هذه الجماعات الى " الفن " باعتباره الوسيلة المثلى التي تحاول الاقتراب من هذا الحلم في شكل الاحتفاظ بتجربة الإنسان في عمره القصير حية بعد رحيله لكي تضاف الى حيوات الآخرين وتجاربهم .

ولأن هذا الفن كان يراد له أن يستمر حياً ، فقد كان من الضروري أن يكون مجسداً لكي يحتفظ في عمقه بروح التجربة التي ولدته . وقد تشكل هذا التجسيد أنا في شكل المعمار وأنا آخر في شكل التمثال . وأحياناً في شكل الجسد البشري نفسه محنطاً ، أو في شكل نتائج الذهن البشري مكتوباً ومدوناً حين اهتدى الإنسان الى وسائل التدوين .

لكن الحضارة العربية القديمة اختارت أن تدون رسالتها الفنية في شكل مسموع بالدرجة الأولى تمثل في الشعر الجاهلي ، وقد كان هذا الفن مسموعاً لأن الأمية كانت سائدة ، ومن هنا فلم يعرف طريقه للتدوين الا في فترات متأخرة ، ربما بعد أن انتهى العصر كله الذي ولدت فيه الرسالة الفنية ، وفي هذه الحقيقة تكمن الصعوبة الأولى في الشعر الجاهلي والخاصة الأولى له أيضاً . لقد ولد هذا الشعر في شكل مسموع أي أنه كتب في الهواء إذا صح هذا التعبير ، ولكنه فن ، وكل فن يحتاج الى الحسد والتميز ، وهو في الوقت ذاته رسالة خلود تحتاج الى التعهد والحفظ من الضياع ، ولقد آلى الشعر على نفسه أن يحقق الشطر الأول وهو مطلب الفن الرفيع وآلى جمهوره على أنفسهم أن يحققوا الشطر الثاني

وهو حفظ رسائته التي تطمح للدوام والخلود .

لكي يحقق الشعر فنيته وتميزه لجأ الى الموسيقى ، موسيقى اللغة وموسيقى الأداء ، وربما أيضا موسيقى النغم المصاحبة ففي سبيل موسيقى اللغة ، قطع الشعر الجاهلي شوطا بعيد المدى ، لانعرف بدايته ، لأننا لانعرف بداية الشعر الجاهلي نفسه وكل مالدينا من نصوصه يمتد قبل الاسلام بقرن أو يزيد قليلا . ولكننا اذا كنا نجهل بداية الشوط ، فاننا نعرف مدى عمقه ، ويكفي في هذا الصدد أن يقال ، ان تنوع موسيقى الشعر الجاهلي بلغت من الغنى حدا كبيرا رصده العلماء فيما بعد في ستة عشر بحرا من الشعر ، وبلغ من كمالها أن خمسة عشر قرنا من تاريخ هذا الأدب أتت بعدها ، فلم تستطع أن تضيف الى هذه الموسيقى الا اضافات قليلة تنبع في الغالب من محاولة إعادة توزيع بعض نغمات موسيقى القصيدة الجاهلية ، مع أن موسيقى الشعر الجاهلي رصدت من خلال ملاحظة هذا الشعر في قرن واحد من الزمان ومحاولات التجديد استمرت بعده حتى الآن .

وقد يكون من المفيد هنا التذكير بأن تنويعات هذه الموسيقى تنتقل من الموسيقى البسيطة ، فيما يسمى بشعر التفعيلة الواحدة ، مثل بحور الرجز والكامل والوافر والمتقارب وبين الموسيقى الأكثر تعقيدا فيما يسمى التفعيلة المزدوجة مثل بحو الطويل والبسيط والخفيف ، ومن المنطقي أن تكون الموسيقى المعقدة متأخرة في الظهور عن الموسيقى البسيطة ، وأن يستعان بذلك المبدأ عند محاولة تبين الموقع الزمني لبعض القصائد على خريطة التاريخ الجاهلي الواسع والمجهول . . .

على أن القصيدة لم تستعن بموسيقى اللغة فقط ، وانما استعانست

كذلك بموسيقى الآداء البشرى ، فالقصيدة كانت تؤدى على نحو أقرب إلى الغناء ، والفعل الذى كانت تستخدمه اللغة لذلك الآداء هو الفعل " أنشد " فيقال " أنشد " قصيدة ، والانشاد شديد الارتباط بالغناء وكان يوحى بالمتشعر ، وهو يجمع الى جودة الصوت قوة الحافظة لكي يكون " راويا " للشعر ، ولأن كل قبيلة تعتز بشاعرها أو شعرائها فهي تحرص على أن يكون له راو أو رواة ، يحفظون ذلك الشعر ، ويؤدونه أداءً حسناً يحبب الناس الى الاستماع اليه وحفظه وكأنهم فى ذلك يستعينون على ذلك الكلام الذى من شأنه حين يفقد القدرة أن يطير مع الهواء ، يستعينون عليه بوسائل التثبيت من موسيقى اللغة وموسيقى الآداء حتى يستقر على النفوس والعقول والأفهام . فيتحقق جزء من معنى رسالة الفن فى السعى نحو الدوام والخلود .

لكن هذا الهدف واجهته مشكلة أخرى ، تتمثل فى الاتساع الهائل لحجم الأرض التى تنطق عليها هذه اللغة ، والتي من شأنها أن تردد هذا الشعر فى جنباتها لكي يؤدى رسالته ، كانت هذه الأرض تمثل شبه الجزيرة العربية التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى من قارة آسيا والتى يحدها من الشمال بلاد الشام ومن الشرق الخليج العربى ومن الجنوب المحيط الهندى ، ومن الغرب البحر الأحمر . وهى فى معظمها - كما هو معروف - منطقة صحراوية تتفاوت ارتفاعا وانخفاضا ، جفافا وخصبا وتسمى أماكنها حسب نصيبها من الظواهر الطبيعية فحين تميل الأرض الى الانخفاض فى الجزء الغربى من شبه الجزيرة منحدره نحو البحر الأحمر تسمى هذه المنطقة " تهامة " دلالة على الأرض المنخفضة ، وإذا ارتفعت قليلا فى النصف الشرقى سميت المنطقة " نجد " إشارة الى الارتفاع أما حجاز السلاسل الجبلية

بين نجد وتهامة فيسمى بالحجاز ، وحين تجود الأمطار على جنوب الجزيرة العربية فينبت الزرع ويكثر الخصب والنماء واليمن ، فان المنطقة تسمى باليمن اشارة الى هذا ، وعندما تخلو منطقة كبيرة من السكان لمعوية الحياة فيها في الجزء الجنوبي الشرقى من شبه الجزيرة العربية ، فانها تسمى بالربع الخالى ...

هذه المنطقة على اتساعها كانت تسود فيها لغة واحدة تتفرع الى لهجات مختلفة ، فكيف كان يحقق الفن الشفوى رسالته خلالها في التوصيل ؟

لقد كان يتم اللجوء الى تجمعات منتظمة تكاد تستمر على مدار العام وتعد في أيام معلومة وفي أماكن معلومة يتم فيها التبادل التجاري والفنى في وقت واحد ، وتعرف بالأسواق فقد كان هناك :

- سوق دومة الجندل ، ويعقد في ربيع الأول
- سوق هجر ، ويعقد في ربيع الثانى
- سوق عَمَـان ، ويعقد في جمادى الأولى

وأسواق تتلوه في البحرين وعدن وصنعاء ، حتى يصلوا الى سوق عكاظ وهو من أكبر أسواقهم ، فيعقد في مدينة الطائف في موسم الحج ...

وفي كل هذه الأسواق يلتقى رواة الشعر مع محبيه وهم يمثلون فى مجملهم معظم سكان الجزيرة ، ويتنافس الشعراء ، ويفاضل النقاد بينهم ، كانت تضرب للناطقة الذبياني قبة حمراء في سوق عكاظ ويتوافد عليه الشعراء ، ينشدونه وهو يحكم بينهم ويفاضل ويلقى ببعض التوجيهات والتحليلات الخاطفة .

لكن الشعر الجاهلى اذا كان فنا يتنافس على الجودة فيه الأفراد

من الشعراء ، فهو أيضا مظهر اجتماعي وسياسي شرفي تتنافس على الاحتفاظ به وتداوله قبائل هؤلاء الشعراء ، ومن هنا فقد حرمت القبيلة على اتساعها أن يظل الخيط بين أفرادها متصلا ولو من بعيد ، ولو من خلال قصيدة ينشدها أحد شعراء القبيلة في مكان بعيد ، فيرويها غيره ممن لم يلنق به في مكان آخر ، ولقد تسبب هذا دون شك في جزء من وجود ظاهرة الانتحال التي تولت خلالها القبائل في فترة التدوين استكمال أنصبتها من الشعر ، فنسبت إلى شعرائها القدماء بعض ما لم يقولوه لكي تتساوى كفتها في الاعتزاز والفخر مع كفة القبائل الأخرى أو ترجحها ، لكن هذا الدافع ذاته ، ربما كان واحدا من الأسباب التي جعلت هذه القبائل — الأمية التي لم تكن تعرف الكتابة والتدوين تحتفظ بنسج متشابك دقيق لسلسلة الأنساب فيها عبر أجيال كثيرة متعاقبة ، وتروى كتب التاريخ سلاسل النسب هذه ، وتتشعب بها من الأقسام الكبرى إلى الأقسام الصغرى ، من الجماهير ، إلى الشعوب ، إلى القبائل ، إلى العماثر ، إلى البطون إلى الأفخاذ ، إلى العشائر ، إلى الفصائل ، إلى الرهوط .

وجداول النسب التي يعلها الدارسون ، تظهر إلى أي حد ، يمكن من خلال النظر في واحد أن نعرف صلة النسب التي تجمع بين شاعرين ربما يفصلهما أكثر من قرنين ، فقبائل تميم ، ينتمي إلى جداولها العامة شعراء مثل امرئ القيس ، والعجاج ، ومالك والفرزدق وجريير . كذلك الشأن في قبائل أخرى مثل بكر وربيعة وقيس وأسد وقصى وقضاع .

هذا التماسك القوي هو الذي يفسره القاري اليوم ، كيف أمكن لهذا التراث الهائل من الشعر أن ينتقل عبر المشافهة خلال نحو قرنين قبل

أن يستقر في بطون كتب المختارات والمفضلات ودواوين الشعراء الجاهليين
التي دونت في العصر الإسلامي وهو يفسر كيف أن هذا الشعر الذي
انطلق من كونه فنا رائعا يعبر عن ظمأ الجماعة البشرية العريضة
للخلود ، قد استطاع أن يبحث لنفسه عن الوسائل الفنية والاجتماعية
التي تكفل له تحقيق رسالته وتوصيلها اليها .

الحلقة الثانية

" امرؤ القيس والظما الى الحب والموت "

قدمت في ٥ فبراير ١٩٨٦م

" امرؤ القيس والظما الى الحب والموت "

على النحو الذى تقترب به الفراشات من مصدر الضوء وتظل ترقص حوله وتتغنى ، دون أن تحسب حسابا للخطر الكامن قريبا منها حتى تحترق ، على هذا النحو كانت حياة علم الجاهلية القديم وأشهر شعرائها ، بل وأشهر شعراء العربية على الاطلاق : " امرؤ القيس " .

كان قد اختار لنفسه أو اختارت له المقادير محورين من محاور الحياة ، يبدوان متباعدين ، ولكنه مزج بينهما وصهرهما فى كيمياء الشعر حتى أصبحا محورا واحدا ، يمزج بين الحب والموت ، ويبحث فى وحشة أحدهما عن لذة الآخر ولم تكن عبارته الشهيرة : " اليوم خمر وغدا أمر " الا معبرا ربط بين هذين المحورين .

وكان امرؤ القيس قد شغل الدنيا والناس حوله ، عاشقا أو طالبا للثأر ، أو مغتربا أو محاربا ، أو فتى ناعلا يذوى ويقضى عليه أو يموت فى بلاد الأعاجم ، ومن كل هذه الزوايا ، جرت حكايته على كل لسان ، وجرى شعره معها ، وتداخل جانب الأسطورة مع جانب الحقيقة فيها فأصبح شعره أسطورة وأصبحت أسطوره شعرا ، ومن هنا أيضا شغل الدارسين بعده لكى يميزوا بين الجوانب المختلفة فى تراثه الفنى .

" وامرؤ القيس " ينتمى الى قبيلة كندة ، التى هاجرت من اليمن ، واستقرت فى نجد . وقد عاش فى القرن السادس الميلادى ومات قبل ولادة الرسول بسنوات قليلة ، (بعض الروايات تقول انه مات سنة ٥٦٥ ، وقد ولد الرسول سنة ٥٧٠) وقد عاش نحو خمسين عاما ، ومعنى ذلك أنه ليس أقدم الشعراء الجاهليين كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكنه من أكثرهم تأثيرا فى شكل القصيدة العربية وتقاليدها مما أشار الى ذلك النقاد القدماء .

كان اسمه امرؤ القيس (وهى كلمة معناها رجل الشدة) وكان ابنا
لحجره بن الحارث ملك قبيلة بنى أسد التى كانت تقطن منطقة نجد والتى
كان ينتمى اليها الشاعر الجاهلى المشهور عبيد بن الأبرص ، ولقد
جنى الشعر على الأمير الصغير منذ بدء شبابه ، فلقد عرف الحب والتغزل
فى بنات القبيلة والقبائل المجاورة ، وكان ذلك يوقع الملك فى الحرج ،
ويبدو أن ذلك قد بلغ مداه ففاطمة بنت العبيد من قبيلة بنى عذرة ،
وهى التى يرد اسمها فى المعلقة حين يقول :

أفاطم مهلا ، بعض هذا التدلل
وان كنت قد أزمعت (١) صرمى (٢) فأجملنى
أغرك منى أن حبك قاتلنى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعلى

وليست هذه الأبيات بالطبع التى أغضبت أباه ، ولكنها أبيات أخرى
فى المعلقة يشير فيها الى مغامرات جرت داخل الخيام تحت جناح الليل
مع هذه الفتاة وغيرها . وأبيات فى قصائد أخرى تكرر نفس النغم كقولة :

ويارب يوم قد لهوت وليلة	بأنسة كأنها خط تمثال
يضيء الفراش وجهها لرفيقها	كمصباح زيت فى قناديل ذبال (٣)
سموت اليها بعدما نام أهلها	سمو حباب الماء حالا على حال
فقلت : سباك الله ، انك فاضحى	ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا	ولو قنطريه رأسى لديك وأوصالى

(١) أزمعت : قررت .

(٢) صرمى : قطع علاقتك بى .

(٣) قناديل : مصابيح ، ذبال : جمع ذبالة وهى الفتيلة .

لكن الملك يقرر أن يطرد ابنه بعيداً عن حماه ، وتبدأ فى حياة
امرى القيس مرحلة من الصلابة ، يلتقى خلالها كما يقول صاحب الأغاني
بأخلاق من شذاد العرب فاذا صادف غديرا أورضة أو موضع صيد أقام
فدبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج الى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل، وأكلوا
معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنى قيانته ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك
الغدير فينتقل الى غيره .

ولعل هذه المرحلة هى التى عرفت ذلك الاتصال القوي بين الشاعر
والطبيعة ، والتى ساعدت على استخراج أجمل اللوحات الخالدة فى تاريخ
الشعر العربى ، والتى جرى فيها تأمل عميق لليل والنهار والمطر
والامتداد اللامتناهى للصحراء ولقمم الجبال التى تجشو ساكنه كأنها
شيخ غطى رأسه بعباءة مخططة ثم أيضاً لحوانات هذه الطبيعة التى ترافق
الشاعر فى وحشتها وتحدث اليه فى سلوكها ، الناقة والجمل على الأرض،
والنسر والعقاب فى السماء ، وفى مرمى أبصارها ومدى وقع تحرك خطاها
أو خفق أجنحتها تكمن عشرات أخرى من الحيوانات أو الطيور الصغيرة
التي توشى لوحات الشاعر المتعددة .

هاهى لوحة الليل الشهيرة عنده تقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله	على بأنواع الهوم ليبتلى (١)
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل (٢)
ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي	بصبح وما الاصبح منك بامثل
فيالك من ليل كان نجومه	بكل مغار القتل شدت بيذبل (٣)
كأن ! لثريا علقت فى مصامها	بأمراس كتان الى صم جندل (٤)

- (١) السدول : الستائر - يبتلى : يختبر .
(٢) الصلب : الظهر - ناء : نهض - الكلكل : الصدر .
(٣) مغار القتل : شديد القتل - يذبل : اسم جبل .
(٤) مصام : مدار - أمراس : جبال قوية - صم جندل : صخر أصم .

وهاهو يمزج الحصان بالصقر فى لقطة واحدة عندما يعلو غلامه ظهر
الحصان لكى يصطاد به أرنباً برياً فهو يهوى عليه كالصقر يطارده بنظرات
قلقة لاتستقر فى مكان :

- كان غلامى اذ علا حال متنه — على ظهر باز فى السماء ملحق (١)
رأى أرنباً فانقضى يهوى أمامه اليها وجلاها بطرف ملق — (٢)

لكن هذه المرحلة التى جرت امراً القيس الى أقصى طرف محور المتعة
واللهو ممثلاً فى الصيد والشراب والغزل وحرية الانتقال من مكان الى
مكان ، لم تدم طويلاً ، فقد تطورت على نحو مفاجئ فى العلاقة بين قبيلة
بنى أسد وبنى حجر بن الحارث ملكها ووالد امرئ القيس ، فقد تمرد
بعض أبناء القبيلة على دفع الضرائب أولاً . فغالى الملك فى عقابهم
واهانتهم وطردهم ، وآلمتهم الاهانة فقرروا الانتقام وكان أن فاجأوا
الملك فى خيمته فقتلوه . وتقول الروايات ان الملك عندما أصيب ، كتب
وصية يطلب من أولاده فيها أن يشاروا له من بنى أسد ، وأعطى الوصية
لرجل وطلب منه أولاً أن يمر على أولاده بادئاً بأكبرهم وأن يخبرهم به الى
أبيه ، فمن أظهر منهم الجزع والحزن ليعطيه الوصية ، ومن تماسك منهم
أعطاها له - ويمر الرجل عليهم جميعاً فيظهرون الجزع والحزن ، حتى يصل
الى أصغرهم امرئ القيس ، فيجده منشغلاً باللعب والشراب ، وحين يخبره ،
يكمل جولة اللعب التى كانت معه ، ثم يلتفت الى الرجل فيسأله عن الأمر ،
وعند ما يعرف ، يقول : " ضيعنى صغيراً وحملنى دمه كبيراً ، لأصحى اليوم
ولا سكر غداً ، اليوم خمر وغداً أمر ، حرام على المتعة حتى أقتل من

- (١) حال متنه : وسط ظهره .
(٢) جلاها : نظر اليها . - ملق : غير مستقر .

بنى أسد مائة وأجز نواصي مائة .

منذ هذه اللحظة تبدأ رحلة امرئ القيس ، نحو الطرف الآخر من رحلة الحياة ، نحو الموت ، وهي رحلة سوف يعطيها كل همه وطاقته ، ولن يكف عن الدوران حولها حتى يحترق فيها ، لكنه خلال الدوران ، سيعطينا هذه المرة خلاصة رائعة لكثير من جوانب الحكمة في الحياة : سمو الهدف وكيف يعذب الجسد في سبيله ، بعد الهمة ، وكيف يتحول إلى خيط مرئى ، الصداقة ، وكيف لاتصمد أحيانا للحظات الشدة القاسية ، الغربة البعيدة وكيف تبعث كل معانى الحنين والشوق في النفس البشرية ، الاحساس بشبح الموت يقترب ، وكيف يذوقه الشاعر ويحس ريحه .

لقد أصر امرؤ القيس في هذه المرحلة على أن يستنفر القبائل لنصرته ومساعدته على الشار من بنى أسد وهو في سبيل هذا لا يكف عن أن يسلك كل الطرق ولا يمل ، فهو لا يرضى بشئ دون هدفه :

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة

كفانى ، ولم أطلب ، قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثــــل

وقد يدرك المجد المؤثـل أمثالي (١)

وتساعده بعض القبائل العربية ، ويشن حربا خاطفة ضد بنى أسد ، لكنه لا يروى ظمأه كاملا ، وتخذه القبائل فلا تواصل المسير معه ، ويقرر أن يذهب إلى أبعد مدى ، أن يذهب إلى قيصر ملك الروم ، ويقوم برحلة طويلة شاقة من قلب الجزيرة إلى بلاد الشام ثم يجتازها إلى تركيا حتى (١) المؤثـل : المثمر الذى له أصل .

1
1
1

1

الأصناف ، وهو بيناديبهم من بعييد :

من هنا لى من صديق فليعد	ليعدنى اننى اليوم كمعد
ليت شعرى ولليت نبوة	أين دار الروح اذ بان السمعد
بينما المرء شهاب شاقب	ضرب الدهر سنه فخمعد
ولبينا المرء يهوى قدمها	أفسد الدهر غناه ففسعد

وهو فى بعض اللحظات يحس بطول المسعى وكثرة الجهد وقلة النتائج
وخيبة الأمل ، ويحس مع هذا كله بشبح الموت يقترب ، وهو يقول :

أرانا مسرعين لأمر غيب	ونسخر بالطعام وبالشراب
فبعض اللوم عاذلنى فانى	ستكفينى التجارب وانتسابى
الى عرق الثرى وشجت عروقى	وهذا الموت يسلبنى شبابى
ونفسى سوف يسلبها وجرمى	فيلحقنى وشيكا بالتراب
وقد طوفت فى الآفاق حتى	رضيت من الفنيمة بالاياب

ان امرأ القيس سوف يقدر له أن يموت فى بلاد الروم وأن يدفن فى
أنقرة ، قبل أن يحقق هدفه فى الشار لأبيه من بنى أسد ، لكنه بعد أن
حقق هدف الفن العظيم فى امتصاص خلاصة التجربة الرائعة فى الالتحام
الشديد بالحياة والطبيعة والحب والموت ، والرقص حول هذه المحاور
والاحتراق فيها حتى يهب لنا ذلك الفن السهل الخالد الذى نقرؤه ونتمتع
به كأعذب ما قدمه لنا تراث الشعر الجاهلى القديم .

الحلقة الثالثة

صورة معاصرة لشاعر قديم

الأعشى

صناعة العرب

قدمت في ١٢ فبراير ١٩٨٦م

صورة معاصرة لشاعر قديم

الأعشى

صناعة العشب

يذكر اسم الشاعر الجاهلي ميمون بن قيس الذي عرف بلقب الأعشى الكبير ، فتذكر معه مجموعة من القيم التي ظلت مرتبطة بالشعر العربي في تاريخه الطويل ، والتي كان الأعشى أول من جسدها وجودها ان لم يكن أول من طرحها ، وهذه القيم بعضها يتصل بفن الشاعر في صناعته ، وبعضها يتصل بمحيطة الذي كان يتحرك في دائرته الواسعة ، وبعضها يتصل بدوره الاجتماعي الكبير والخطير في المجتمع العربي القديم ، ثم يمس بعض هذه القيم الموضوعات التي كان يؤثر الشاعر القديم أن يتناولها .

ولعل أول ما يشار يتصل بلقب الشاعر : " الأعشى " وهو لقب يعنى ضعف الأبصار ليلا ، أو فقدانه ، وقد لقب به شعراء آخرون بعده ولهذا فانه يتميز بلقب الأعشى الكبير أو الأكبر ، أو أعشى قيس ، وسواء كان الشاعر قد أصيب بضعف البصر أو فقدانه فان عاهته لم تمنعه من أن يتبوأ مكانة متميزة بل شديدة التميز في تاريخ الشعر العربي ، لعله من هذه الناحية يقف على رأس فريق من الشعراء بعده ، شقوا الطريق ببصائرهم لأبصارهم من أمثال بشار بن برد وأبي العلاء المعري ، ومن أمثال طه حسين في الأدب المعاصر .

أما مكانة الشاعر في المجتمع فان تاريخ حياة الأعشى يقدم لنا كثيرا من المواقف الدالة على القدرة الخارقة التي كان يتمتع بها الشاعر الجيد في المجتمع القديم ، كان الدفاع عن القبيلة في مقدمة المهام التي يتحملها الشاعر ، ولسانه لا يقل فعالية عن السيف والأعشى يقول لأفراد قبيلته :

وأدفع عن أعراضكم وأعيركم لسانكم كمقراض الخفاجى ملحبا (١)

لكن هذه القوة ، لاتوجه فقط لحل مشاكل القبيلة ضد عدائها وانما
لحل المشاكل الاجتماعية التى تعترض بعض أفرادها ، وها هو رجل عربى
فى عصر الأعشى يكثّر بناته ولايتقدم لخطبتهن أحد ، فيسعى الى الأعشى
بالعطاء والكرم أملا أن يقول الأعشى شعرا فى مدحه ، فيسير شعره فى
الناس ، ويتقدم الشباب لخطبة بناته ، ويقع الكرم الذى يقدمه ذلك
الرجل واسمه " المخلق الكلابى " من نفس الأعشى موقعا حسنا ، فينشد
قصيدة فى مدحه يشيع منها على نحو خاص ، هذان البيتان :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمخلق

وعندما تشيع القصيدة فى القبائل يتقدم كثير من الشباب لخطبة
بنات المخلق ، وتقول الروايات القديمة انه اذا كان المخلق قد ذبح
ناقته الوحيدة كرما للأعشى ، فان قصيدة الأعشى جرت على المخلق ثمانمائة
ناقة مبرا لبناته الثمانى اللاتى تزوجن بعد تصيدة المدح .

لكن قمة الدلالة على ثقل هذه المكانة فى المجتمع وتصارع القوى
الكبرى فيه على اجتذاب الشاعر الى جانبها ، يتضح فيما يروى من قصة
محاولة الأعشى الدخول فى الاسلام .

فعندما شاع أمر الاسلام واستقر بعد الهجرة وحسم الصراع بين
الوشنيين والمسلمين لصالح المسلمين ، فكر الأعشى فى أن ينضم الى القوة

(١) قاطعا .

الغالبه لياخذ من الغنم ويتقى الغرم وأعد بالفعل قصيدة. فى ممدح
الرسول ، بدأها بالغزل التقليدى فى قوله :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وعادك ماعاد السليم المسهدا

وماذاك من عشق النساء وانما

تناسيت قبل اليوم خلة مهـدا

ثم تابع الحديث التقليدى الذى يعقب لوعة العشق والارتحال على
ناقاة قوية فى صحراء قاحلة يصيبها التعب والكلال من كثرة السير ولكن
الشاعر يمهّد بوصف تعبها فيقول عن ناقته :

فآليت لاأرثى لها من كلاله ولا من حفا حتى تزور محمدا

نبي يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراخى وتلقى من فواضله يـدا

ومع أن الأعشى كان يعيش بعيدا عن مكة والمدينة حيث يوجد الصراع
بين المسلمين والوثنيين فقد ^{الى المكيين} طار خبر عزم الأعشى على دخول الاسلام
فأفرعهم ذلك كثيرا ، وخافوا أن تنضم هذه القوة الكبيرة الى جانب
أعدائهم . وقالوا : " هذا صناجة العرب مامدح أحدا قط الا رفع نـى
قدره " وترصدوه على طريق المدينة حتى مر بهم - فقالوا له : " أين
أردت يا أبا بصير " قال أردت صاحبكم هذا لأسلم ، قالوا : انه ينهـاك
عن حلال ويحرمها عليك ، وكلها بك رافق ولك موافق ، قال وماهن ، قال
أبو سفيان بن حرب ، الزنا ، قال الأعشى ، لقد كبرت ، قال والقمار
قال لعلى ان لقيته أن أصيب منه عوضا عن القمار ، ثم ماذا ؟

قالوا الربا ، قال مادنت أحدا . ولاتدأينت من أحد ثم ماذا ؟ قالوا
الخمير قال .. أما هذه فيصعب على النفس تركها .. ارجع عامى هذا
فاروى منها ثم أعود فى العام القادم ، قال له أبو سفيان ، هل لك فى
مائة من الابل نجمعها لك وتعود الى قبيلتك فتنتظر حتى ترى لمن منا
ستكون الغلبة فتتبعه ، قال ما أكره ذلك ، قال أبو سفيان بياض قريش ،
هذا الأعشى ، والله لئن أتى محمدا واتبعه ليضر من عليكم نيران العرب
بشعره فاجمعوا له مائة من الابل ، ففعلوا فأخذها وعاد بها فلما كان
فى طريق العودة وقع من فوق جمل له فمات . ولم تكن قريش تترصد الطريق
لأعشى وتبذل له كل هذه الهبات لو لم تكن له هذه المكانة عند قبائل
العرب جميعا .

كان الأعشى يلقب بأنه " صناجة العرب ، وهو لقب يتصل بالفنساء
فما الذى جعله يكتسب ذلك ؟ هل كان شعره يجرى كثيرا على ألسنة المغنين؟
هل كان شعره يتمتع بخصائص موسيقية مميزة جعله صالحا للترنم والشدو؟
أم كان الأعشى نفسه مغنيا حسن الصوت يترنم بشعره فيطرب الناس للقول
الجيد والصوت الجميل معا ؟ كل هذه الاحتمالات واردة ، فاحدى الروايات
تتحدث عن أن الأعشى كان مرة يتغنى بشعره فى بلاط كسرى ملك فارس ، فسمعه
كسرى ينشد قوله :

أرقت وما هذا السهاد المورق وما بى من سقم وما بى معشوق

فسأل كسرى ماذا يقول هذا العربى ، فترجموا له أنه يقول : سهرت
من غير مرض ولا عشق ، فقال كسرى ، اذن فهو لص ، وتعليق كسرى دون شك
ينتمى الى المدى الذى يمكن أن تبلغه ترجمة الشعر فى نقل الاحساس به ،
ولكن الذى يهمنا هو أن صوت الأعشى المغنى هو الذى لفت نظر الملوك

الفارسي ، ولم يكن يسمح لأحد بالغناء في بلاط ملك أجنبي الا اذا كان على درجة من الاحتراف والجودة الكافية ولعل ذلك يرجع أنه كان صناجة للعرب من هذه الزاوية على أن ذلك لا يمنع من ورود الاحتمالين الآخرين في تفسير معنى صناجة العرب فموسيقى شعر الأعشى كانت أكثر لينا وأقرب الى طبيعة الغناء وكان ذلك تطورا طبيعيا للشعر في نهاية العصر الجاهلي .

واذا حاولنا أن نعرض هذا الفرض على معايير علم موسيقى الشعر لنعرف خصائص موسيقى شعر الأعشى ، فاننا نجد أن ديوان الأعشى في احدى طبعاته يتكون من (٨١) قصيدة تتوزع أهم البحور فيها على النحو التالي :

البحر	عدد القصائد	النسبة المئوية
بحر الطويل	٢٨	٣٤٪
المتقارب	١٠	١٢٪
الكامل	٧	٨.٥٪
الوافر	٦	٧.٥٪
مجزوء	٦	٧.٥٪
الكامل		
الخفيف	٥	٦٪

ولعل مما يلفت النظر في هذا الجدول ، احتلال بحر المتقارب لنسبة عالية تصل الى ١٢٪ وهو بحر موسيقى متدفق وكذلك احتلال الوافر ومجزوء الكامل لنسب عالية تساعد على صلاحية الشعر للغناء ، وظهور بحر الخفيف .

ولعل القيمة الفنية لشعر الأعشى تنصح لو قارناها مع موسيقى شاعر كبير آخر مثل امرئ القيس ، فسوف نجد الفروق على النحو التالي :-

البهر	نسبته عند امرىء القيس	نسبته عند الأعشى
الطويل	٧٢٪	٣٤٪
المتقارب	٠٠٤٪	١٢٪
الكامل	٧٪	١٦٪
أنوافر	-	٧٥٪
الخفيف	-	٦٪

على أن شعر الأعشى لم يكن يغنى فقط لموسيقاه الرقيقة وإنما أيضا لهذا اللون من المعانى التى كان يتميز به شاعر كثير التجوال والتجربة ، وقد تنوعت اللوحات الجميلة التى يمكن اقتباسها من شعر الأعشى ، فمن غزل رقيق مثل قوله :

قام الخلى ، وبت الليل مرتفقا أرعى النجوم عميدا مثبنا أرقا
أسهو لهمى ودائى، فهى تسهرنى بانث بقلبى وأمسى عندها علقا (١)
ياليتها وجدت بى ما وجدت بها وكان حب ووجد دام فاتفقا
صادت فؤادى بعينى مغزل خذلت ترعى أغن غصيفا طرفه حرقا (٢)
الى صور رحيل المحبوبة وسط صبايا أهلها بعيدا عن الحى ، وتنبع
الشاعر لأدق التفاصيل فى مثل قوله :

أذن اليوم جيرتى بحفوف صرموا حبل ألف مألوف (٣)
واستقلت على الجمال حـدوج كلها فوق بازل موقـوف
من كرات وطرفهى سجـو نظر الأدم من ظباء الخريف (٤)

- (١) بانث ، بعدت ، غلقا : مرهونا .
(٢) خرق : خائف .
(٣) الحفوف : الرحيل .
(٤) الكرات : النواعس ، الأدم : الظباء .

أو تصوير العادات والقيم الكبرى التي تتبادلها القبيلة جيلاً
بعد جيل من خلال وصايا الآباء للأبناء :

ان الأعز أبانا كان قال لنا أوصيكم بثلاث اننى تـــــــلف
الضيف .. أوصيكم بالضيف ان له حقاً على فأعطيه واعتـــــــرف
والجار أوصيكم بالجار ان له يوماً من الدهر يثنيه فينصرف
وقاتلوا القوم ان القتل مكرمة اذا تلوى بكف المعصم العـــــــرف (١)

ثم هاهى الحكمة التي يدفع بها الشيخوخة وعناؤها :

لعمرك ما طول هذا الزمــــن على المرء الا عناء معــــن
يظل رجيماً لريب المنــــون وللسقم فى أهله والحرــــن
فهل يمتنعنى ارتياد البــــلا د من حذر الموت أن يأتــــين
أليس أخو الموت مستوثقــــا على وان قلت قد أنشــــان (٢)
ان كل هذه الصور تقرأ اليوم ويمكن لنا التمتع بها من جديد مع
أنها مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً ، وتلك حالة فريدة فى الآداب
العالمية كلها فأبناء اللغة الفرنسية أو الانجليزية أو الألمانية
لا يستطيعون أن يفهموا ويتمتعوا بآدابهم الا للفترات التى تعقب القرن
الخامس عشر على أحسن تقدير ، أى لا يستطيعون الصعود أكثر من خمسة
قرون ، فاذا أتيتح لنا فى أدبنا ولغتنا هذا البعد الزمنى الفريد ،
أفلا ينبغى أن يكون إقبالنا على تراثنا أشد ، واستفادتنا منه أعمق ،
ونسجنا على منواله دافعا لنا الى مزيد من الجودة ؟ .

(١) أى اذا كان الانسان يسقط عن دابته بمعنى ضافت أمامه السيل .
(٢) أنساه : آخره وأجله .

الحلقة الرابعة

شعر المعاليك

قدمت في ١٩ فبراير ١٩٨٦م

شعر المعاليك

يظل الشعر واحداً من فنون التعبير التي يلاشها مناخ معين ففى لحظة الابداع وفى محور الابداع وفى طريقة تصويره ، والشعراء على اختلاف أجيالهم ولغاتهم يحاولون الاقتراب من دائرة هذا المناخ، الذى لا يحمل بدوره حدوداً مرسومة ولا خطوطاً واضحة . وانما يحمل ملامح عذبة متداخلة ، أقرب الى ملامح لحظات الحلم السعيدة. التى تستعصى غالباً على الإمساك بها .

لكن واحدة من السمات التى يمكن الاقتراب منها لهذه الظاهرة هى سمة " التوسط " فالشعر كلام يقع بين حدى التماسك الشديد فى الكلام المنطقى والتفكك التام فى لغة الهذيان ، ولغته الفنية تقع وسطاً بين حدى الصدق والكذب ، ولحظات ابداعه تحمل قدراً من التوتر يقع وسطاً بين الاستسلام التام والغليان المدمر ، ومن خلال هذا كله يصطنع الشعر لغته الخاصة وخياله الخاص ومنطقه الخاص لكى يصل فى النهاية الى رسم عالم لا يقبله ولا يرفضه ، لا يماثله ولا يغايره ، وانما يوحى بمزيج من ذلك كله وفى ذلك نكمن العظمة المثالية المنشودة فى الفن .

من هذه الزاوية يبدو " شعر المعاليك " فى العصر الجاهلى نمطاً شديداً القرب الى جوهر الفن . فهو شعر ولد فى لحظات توتر حادة ، من جماعة تعيش بطبيعة تكوينها على حافة المجتمع ، وتحتل بهذا موقعاً أصبح الفن الحديث الآن يجد فيه منبعاً ثراً للابداع الفنى ، ومناخاً ملائماً لتصوير حالات التفرد فى الجماعة البشرية .

وينبغى فى البدء ألا يخدعنا مصطلح " المعاليك " فيرتبط بظلال الكلمة الحاضرة ، فالمعاليك فى القديم كانوا جماعة من الفتية الشجعان المتمردين على تقاليد القبائل والعيش فيها ،

للنظم الاجتماعية السائدة ، ومن ثم فقد اختطوا لأنفسهم طرائق فـى العيش مختلفة عن طريقة الجماعة بل ومتصادمة بها ، وكانوا فى معيشتهم أكثر قربا من الطبيعة ومن كائناتها الحية ، وهم بهذا كله قد اكتسبوا سمعة طيبة جعلت واحدا مثل معاوية الخليفة الأموى يتمنى كما يقول - صاحب الأغاني - أن لو أتاحت له فرصة المصاهرة الى ذرية المعاليك ، وجعلت عبد الملك بن مروان يتمنى لو كان هو نفسه من نسلهم وجعلت الخليفة المنصور يروى بنفسه نوادرهم .

هذه الجماعة مثل شعرها جانبا هاما من جوانب الشعر الجاهلى ان لم يكن من حيث الكم ، فهو من حيث المذاق ، والتأثير الذى يحتاج الى الكشف عن بعض جوانبه ، وهذا التأثير يبدو أنه قديم قدم مانعرفه من الأدب الجاهلى نفسه ، فها هو الأصمعى يذهب فى احدى الروايات الى أن كثيرا من شعر امرئ القيس انما هو لمعاليك كانوا معه ، وفى هذه الرواية دون شك كثير من المبالغة ولكن فيها أيضا كثير من الإشارة الى احتمالات وجود من المعاليك مجهولين تشرقوا على فترات المصـر الجاهلى المختلفة وربما لم تصلنا من أخبارهم الكثير .

وإذا كانوا قد تناشروا تاريخيا على امتداد العصر ، فانهـم تناشروا جغرافيا على امتداد الصحراء ، ولكنهم تجمعوا بالقرب من نقاط الخصب فيها واتخذوا هم لأنفسهم من الصحراء نقاط تمركز كانوا من خلالها يغيرون على هذه البقاع الغنية فى اليمن ونجد ويشرب ومكة والوديان المحيطة بها .

ويبدو من تتبع حركة المعاليك ، أنهم تعارفوا فيما بينهم على

مناطق النفوذ ، فهذا هو عروة بن الورد ، يتحرك فى يشرب وشمــــال
الجزيرة ولايتجاوزها الى نجد وتهامة الا قليلا .

أما مكة وماحولها من الوديان فهى من نصيب صعاليك هذيل وفهم
ويستأثر الشنفرى ومعه صعاليك الأزديان اليمين الخصيبة أما أعماق
اليمين فهى مجال حركة السليك أعرف العرب بالصحراء وأسرع الأقدام عدوا
فيها .

كيف كانت تتم حركة "التصعلك " بهذا المعنى الفنى والاجتماعى
وكيف رسم شعرهم ذلك ؟

كانت الخطوة الأولى تمرد الفتى على حياة الجماعة التى يشيع فيها
الظلم والهوان للفقراء المستضعفين . والتى تسودها العلاقات الملية
بالضغائن المبيتة ، فكان يؤثر العيش فى انصحراء مع الحريــــة
والوحوش ، ويصور الشنفرى فى لامية العرب هذه الخطوة الأولى حين يقول:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم فانى الى قوم سواكم لأميــــل
وفى الأرض منأى لتكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولى دونكم أهلون: ذئب عملــــس وأرقط زهلول . وعرفاء حيــــال
هم الأهل ، لامستودع السرذائع لديهم ، ولا الجانى بما جر يخذل
وكل أبى باسل غير أنــــى اذا عرضت أولى الطرائد أبسل

فهو حين ترك القبيلة ووجد فى الأرض متسعا ، اختار أن يكون أهله
الجدد ، الذئاب والنمور والحيات ، ووجد أنهم لا يذيعون سرا حــــين
يستودعونه ، وأنهم شجعان ، لكنه هو نفسه أشبههم جميعا لكن مخالطة هذه

الوحوش والحياة فى تلك البيئة ، يتطلب التسليح بألوان معينة من الكفاءات البدنية والنفسية ، لاتتوافر للانسان فى الظروف العادية . ولقد روض الصعاليك نفوسهم وجسومهم فى تجربة بشرية قاسية حتى ساووا وحوش الفلاة فى التمتع بصفاتها . فهم أولا عداءون ، لا يبارون فى سرعتهم . وها هو ذا تأبط شرا يسارع الغزلان فى الصحراء فيسبقهم وكان دائما يأخذ صيده منها من خلال الجرى على القدم .

وها هو أبو خراش ينزل يشرب ، فيجد بعض خيول الأثرياء تستعد للسباق ، فيراهن بدوره على أن يسبق أسرعها وعلى أن يفوز بالفرس الذى بسيفه مكافأة له ويكون السبق من نصيب المملوك .

ويرسم الشنفرى صورة له وللقطا أثناء التسابق فى المحاراة للوصول الى عين ماء ، ويصل قبلها على الرغم من أنه لم يجر بكل سرعة ، ويشرب النصيب الأكبر من الماء قبلها ، وتضطر هى أن تتمد أعناقها الطويلة بعده فى الحوض حتى تلامس الماء والذى سبق إليه المملوك وشرب معظمه .

هممت وهمت ، وأبتدنا وأسدلت وشمر منى فارط متمهل فوليت عنها وهى تكسو نعقرة يباشره منها ذقون وحوصل

والقوة شرط ضرورى لمن يعيش وسط الوحوش ، وعلى كثرة ماجسد الشعر العربى قوة الأبطال ضراوة وتماسكا وشجاعة - لم يبلغ ذلك التجسيد مافعله ، تأبط شرا " شاعر الصعاليك " حين صور صراعا قاسيا بينه وبين الغول ، ولا بد أن نتذكر أن الغول حيوان خرافى ، أى أنه لاوجود له فى الحقيقة ، ولكن الشاعر يرسم صورة له ، وللمعركة القاسية التى انتهت بمقتل الغول ، يقول :

الا من مبلغ فتيان فهم بما لاقيت عند رحي بطان
وانى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيحة صحصحان
فقلت لها : كلانا نضو أيمن أخوسفر فخلى لى مكانى
فشدت شدة نحوى ، فأهوى لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش ، فخرت صريعا لليدين وللجنان
فقلت عد ، فقلت لها ، رويدا مكانك اننى شبت الجنان
فلم أنفك متكئا عليها لانظر مصبها ماذا أتانى
إذا عينان فى رأس قبيلح كراس الهر ، مشقوق اللسان
وساقا مخدج ، وشواة كلب وثوب من عباد أو شنان

والصور هنا تجسد معنى أن يخلق الشاعر عالمه الفنى الذى يتحرك
داخله لينقل من خلاله لونا من الأحاسيس تولده تجربة فنية دقيقة ،
والصورة المتخيلة التى رسمها تذكر بصور الأساطير الاغريقية القديمة
للحيوانات الخرافية .

على أن معايشة الصحراء نفسها والتغلب على عناصر الموت فيها
يتطلب دربة خاصة وها هو السليك يحاول التغلب على الجفاف القاتل
فى صحراء اليمن الشاسعة حين يختار موسم الصيف القاحل ليمارس فيه
من خلالها غزواته ، وحيث لاتستطيع الخيول نفسها ولوج الصحراء لأن الموت
عشا يتهددها . ولكن الصعلوك يكون قد أعد عدته منذ فصل الربيع ، فيملا
بيض النعام بالماء البارد ويدفنه فى أماكن فى الصحراء يعرفها جيدا .
فاذا جاء الصيف كان هو وحده ملك الصحراء يستطيع فيها الحركة كما يشاء .

لكن هناك جانبا انسانيا وثوريا متألقا فى تجربة الصعاليك كانت

الفوارق الطبقيّة الشاسعة دافعا قويا وراء وجودهم فى الوقت الذى يمتلك فيه أحد الأغنياء واديا مليئا بالأبل ، يوجد مئات الفقراء بجانبه قد يموتون جوعا ، ولا يمتلك الواحد منهم أكثر من حبل يجرب به جزءا من القطيع فى خدمة السيد ويستجدي قوت يومه ، يقول أحدهم :

وأنى لاستحى لنفسى أن أرى أمر بحبل ليس فيه بغير
وأن أسأل العبد اللئيم بغيره وبعران ربى فى البلاد كثير

ومن هذا المنطلق يأتى سعيهم للغنى ، ابعادا لشبح ذل الفقر،
وتأتى أبيات عروة بن الورد الخالدة :

ذرينى للغنى أسعى فانى رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم وان أصى له حسب وفيه
يباعده القريب ، وتزدريه حليته ، ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه ، والذئب جـم ولكن للغنى رب غفور

وحين يتاح المال للمعاليك يتحولون الى أسخياء وكرمـاء ، ويرى
العرب أن حاتم الطائي لم يكن أكرم من عروة بن الورد الذى يحكى
عنه صاحب الأغاني ، أنه كان اذا نزل القحط بالناس يجمع المرضى وكبار
السن والضعفاء ويوفر لهم المأوى والطعام حتى تعود اليهم العافية
ومن اشتد عوده منهم اصطحبه معه فى السلب على أموال الأغنياء التى
يأتى بها ليوزعها على الفقراء .

ان شعر المعاليك ، وجه يبرز من الصحراء الجافة ، برمالها
وجديتها وصلابتها وصراحتها ، ويظل بعيدا عن الزيف والمجاملة والرقعة
المصطنعة ، يظل نموذجا للشعر الجاهلى الأصيل .

الحلقة الخامسة

عصر صدر الاسلام والعصر الأموي

الخريطة السياسية والاجتماعية والثقافية

قدمت في ٢٦ فبراير ١٩٨٦م

عصر صدر الاسلام والعصر الأموى

الخريطة السياسية والاجتماعية والثقافية

يتطلب الامام بالمناخ العام الذى ولد فيه الانتاج الأدبى فى هذين العصرين المتعاقبين ، رسم خريطة سريعة للتطور الهائل الذى لحق بالمجتمع العربى الاسلامى فى هذه الفترة التى لم تزد على مائة راشدين وثلاثين عاما .

ففى المجال السياسى تتغير خريطة الدولة من مجرد رقعة صغيرة فى قلب الجزيرة العربية تمثل نواتها المدينة وماحولها من القرى فى البداية الى كتلة تتسع شيئا فشيئا حتى تغطى شبه الجزيرة العربية فى نهاية حياة الرسول .

لكن هذه الخريطة تزداد اتساعا فى عهد الخلفاء الراشدين فى آسيا فتبلغ الأقاليم الواقعة فى الاتحاد السوفيتى الآن مارة بسهولة العراق وبلاد ايران وفى افريقيا فتعبر البحر الأحمر وتشمل وادى النيل وبدايات الشمال الافريقى أما فى نهاية عصر الدولة الأموية فان مساحة الخريطة السياسية تشمل الشمال الافريقى كله وجزءا من قارة أوروبا فى الأندلس وتمتد فى قارة آسيا حتى تبلغ حدود الصين وتغطى الجزر المعروفة فى البحار الدافئة وهى بهذا كله تمتد على معظم مساحة العالم المتحضر يومئذ .

وفى اطار هذه الحركة الدائمة للحجم السياسى للأمة ، توجد حركة داخلية يتغير فيها مركز الثقل داخل الدولة بتغير العواصم السياسية ، ففى هذه الفترة القصيرة يبدأ الثقل فى المدينة عاصمة الخلفاء الراشدين ، ثم ينتقل الى الكوفة فى عهد على بن أبى طالب ، والى دمشق بدءا من خلافة معاوية ، والى مكة فى عهد عبدالله بن الزبير ثم يستقر مرة أخرى فى دمشق حتى نهاية العصر الأموى .

وإذا كانت العواصم تمثل مراكز الثقل الرسمية ، فإن القسوى المناهضة لهذه المراكز كانت تتخذ الأقاليم البعيدة مسارح لأنشطتها ، فجماعات الخوارج والشيعة والزبيريين تتخذ من الحجاز والعراق وفارس مراكز لمناهضة الأمويين ، ويستعين كل فريق من المؤيدين أو المناهضين بشعرائه وخطبائه ، وفى هذا المناخ يولد الأدب السياسى لهذا الفكر . مع الحركة السياسية توجد حركة اجتماعية موازية ، تتمثل فى الهجرة الكبرى التى تنتشر فيها موجات من بدو الجزيرة الى المدن والأقاليم الحضرية التى فتحت ، ومن خلال ذلك يتم امتزاج العرب بالأجناس الأخرى ، ويتم اللقاء بين العادات والتقاليد ، والثقافات ، وينعكس ذلك كله على فترة الهدوء التى أعقبت قيام الدولة الأموية ، فتنتشر المغنيات الروميات والفارسيات فى مدن الجزيرة ، ويكثر شعر الغزل الرقيق ، ويستبدل بعض الشعراء بمعنى الجهاد الذى شاع فى صدر الاسلام معنى آخر كما يقول شاعر الغزل العذرى جميل بن معمر :

يقولون جاهد ياجميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أرى
لكل لقاء بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

وإذا كانت المدن قد شغلت بالغناء - فى الحجاز خاصة - فإن مدنا أخرى قد شغلت بمدارس الرأى والفقه والحديث ، فقد نشأت مراكز فكرية فى مكة والمدينة ودمشق وخراسان والكوفة والبصرة ، وبعضها يميل الى الاجتهاد وأعمال العقل ، وهؤلاء عرفوا بأصحاب القياس ، وفى مدارس هؤلاء وأولئك تثور قضايا حول القضاء والقدر ، حول الجبر والاختيار وهى فى جوهرها تعكس حيرة الجماعة الفكرية بين الاستسلام لحكم الأمويين الذين قتلوا بعض آل البيت وأخذوا السلطة فى يدهم وبين التمرد وحماية

الحق النظرى الذى جاءت به الدعوة ، ولم يكن الشعراء بعيدين عن مجال النقاش فى هذه القضايا ، فالفرزوق يتابع حلقات الحسن البصرى وجريير يتابع حلقات ابن سيرين ، وذو الرمة ينتمى الى جماعة القدرية المرحجة ، وشعراء الخوارج تبدو فى شعرهم حدة الثوار وشجاعة الفرسان ، ولا يعدم الأمويون بين الشعراء من يناصرهم ويمدحهم اعجابا بأبهة الملك أو طمعا فى صلات الخلفاء والأمراء ، ويظهر لآل البيت شعراؤهم المدافعون عن حقهم والمشاييعون لهم .

الشعر والدعوة :

جاء الاسلام فوجد الشعراء يمثلون فى المجتمع أصواتا قوية مؤثرة أقرب ماتكون الى أجهزة الاعلام فى العصر الحديث ، ولهذا كان العرب يعتزون بنبوغ الشعراء بينهم . وكانت القبيلة تحتفل عندما يولد ولد أو تنتج فرس أو ينبغ شاعر ، ولقد حافظ على مكانة الشاعر ، ولعب الشعراء المسلمون دورا هاما فى الحفاظ على هبة الجماعة الاسلامية ورد سهام أعدائها الى نحورهم ، وكان أبرز شعراء المسلمين فى العصر الأول: حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رواحة وكانت تدور بينهم وبين شعراء الكفار نقاش شعريه وهى القصائد التى يتبادل فيها الشعراء الدفاع عن معتقداتهم ويحرصون على أن تكون قصيدة " الدفاع " على بحر وقافية قصيدة " الهجوم " .

عندما هزم المسلمون فى موقعة أحد ... هاجمهم شاعر المشركين

عبدالله بن الزبيرى بقصيدة من بحر الرمل وعلى قافية السلام :

كم قتلنا من كريم سيد ماجد الجدين مقدام بطـ

ليت أشياخى بيدر شهدوا جزع الخرج من وقع الأسـ

فیرد علیہ حسان بن ثابت من نفس البحر والقافية :

ولقد نلتهم ونلنا منكم —
 اذ شدنا شدة صادقــــــــــــــــة
 وتركنا في قريش عــــــــــــــــورة
 وكذاك الحرب أحيانا دول
 فأجأناكم الى سفح الجبل
 يوم بدر وأحاديث مشل

ولكن تاريخ شعر المشركين ينتهى بفتح مكة ، فمن بقى منهم على قيد الحياة يأتى الى الرسول تائباً معتذراً طالباً الصفح والغفران ، وتاريخ هذه الفترة يحمل لنا قصائد جميلة تنتمى الى هذا ^{النهج} أشهرها قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول والتي يقول فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
 أنبت أن رسول الله أوعدنى
 لا تأخذنى بأقوال الوشاة فلم
 أن الرسول لنور يستضاء به

مئيم أثرها لم يفت مكبول
 والعفو عند رسول الله مأمول
 أذنب وان كثرت فى الأقاويل
 وصارم من سيوف الله مسلول

وينسهر الشعراء جميعاً في عصر الخلفاء الراشدين في هذه الحركة
الشعورية العامة التي سادت الأمة جميعاً ، والتي من خلالها أصبحت
تقاليد الدين الجديد سائدة ، وولدت فتوحاته لونا من الحميا في كل
النفوس أثرت على موسيقى الشعر فأصبحت في معظمها رجزا يناسب ايقاع
الحرب ، وعلى اعداده. فأصبح في الغالب مرتجلا يناسب سرعة الأحداث ، ومن
خلال هذه الخاصية فقد جزءا من الصقل الذي كان يحظى به في الجاهلية ،
واتهم من النقاد بأنه أصبح شعرا لينا ثم سيطر على الشعر كذلك خلق
الدين الجديد الذي يحرم الفحش في القول وتناول أعراض الناس في الهجاء ،
ومن هذا المنطلق حبس الخليفة عمر بن الخطاب الشاعر الحطيئة ~~عنه~~

شكا الناس من شدة وقع لسانه عليهم ، ولم يشفع للحطيئة ألا توسل به
بأطفاله الصغار فى قصيدة وجهها الى عمر بن سجنه :

ماذا تقول لأفراخ بذى مـرخ زغب الحواصل لاماء ولاشجر
ألقىت كاسبهم فى قعر مظلمة فاعفر عليك سلام الله ياعمر

لكن هذه الروح الدينية لن تطول كثيرا ، فمع محبى الدولة الأموية ،
وتحول الخلافة الى نظام وراثى ملكى ، عاد الشعر الى طرق الموضوعات
التي كان قد صمت عن الجهر بها زمنا ، عادت الخمر موضوعا أشيعا ،
وانتشر الترف والطرب فى الأقاليم ، وحولهما انتشر شعر الغناء ، ثم
شاعت ألوان من الغزل الرقيق تميز بها ذلك العصر ، وأصبحت سمة من
سمات الأدب العربى وتنوع ذلك الغزل بين غزل تقليدى ، وغزل سياسى ،
وغزل عذرى على النحو الذى تمتلىء به صفحات كتب الأقدميين .

الحلقة السادسة

مقاييس جمال النص في صدر الاسلام

وموقف الاسلام من الشعر

قدمت في ٥ مارس ١٩٨٦م

مقاييس جمال النص في صدر الاسلام
وموقف الاسلام من الشعر

سزل القرآن وسط أمة يتمثل تراشها الحضارى الأول فى " الكلام الجميل " ويتجسد هذا الكلام على نحو خاص فى فن الشعر ، الذى كان " ديوان العرب " . وكانت معجزة هذا القرآن ذاته أنه كلام " أحصل " وأن من ينكرون وحيا سماويا عليهم أن يقبلوا التحدى ، ويحاولوا الاتيان بكلام مثله أو مثل جزئه أو حتى آية واحدة منه ، وكان معنى هذه المواجهة التى انتهت بعجز المتحدين ، والايمان بالنص المقدس ، أن هنالك تغايرا فى نسيج البناء الفنى لنوعى الكلام اللذين جرى التحدى بينهما القرآن والشعر ، وهذا التغاير الذى حاول البلاغيون فيما بعد الكشف عن طبيعته ، فهمه البعض على أنه " تضاد " وعداء ، وطوروا فهمهم فاستنتجوا أن روح النص القرآنى . لاحتبذ الاشتغال بالشعر ابداعا أو رواية أو دراسة ان لم تكن تقف ضد ذلك كله ، وربما تطور الأمر فى ذهن من يتابع امتدادات هذا الفرض الى احتمال وجود نوع آخر من التضاد بين الدين والفن الرفيع السامى الذى يمثله الشعر، وذلك كله ليس يحتاج الى توضيح - وذلك التوضيح يمكن أن يتم على مستويين :

الأول : اعادة فهم الأساس النظرى لموقف القرآن من الشعر .

الثانى: تتبع السلوك العملى والعلمى للجماعة الاسلامية ومعرفة دور الشعر فى هذه الفترة .

وفىما يختص بالنقطة الأولى ، فان الفهم السريع لبعض آيات القرآن مثل قوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاؤون " قد يؤدى الى التوصل الى فهم سريع ، ولكن استنتاج فهم دقيق يتطلب النظر الى مجمل الآيات التى وردت فى هذا الصدد وقد وردت فى القرآن فى ستة مواضع ، خمس منها مكية ، وواحدة فقط مدنية وردت فى آخر سورة مكية وهى سورة الشعراء ، والآيات الكريمة هى : -

- (١) بل قالوا أضفان أعلام بل افتراه بل هو شاعر: سورة الأنبياء
(٢) ويقولون أشنا لتاركوا الهتنا لشاعر مجنون: سورة الصافات
(٣) أم يقولون شاعر نترى به ريب المت: سورة الطور
(٤) وما هو بقول شاعر قليلا مات مؤمنا: سورة الحاقة
(٥) وما علمناه الشعر وما ينبغي له أن هو إلا ذكر ر
زقرآن مبين : سورة يس

(٦) والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل
واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون الا
الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا
وانتصروا بعدما ظلموا : سورة الشعراء

ويلاحظ أن ورود الآيات تركز فى فترة الدعوة المكية أى فى المرحلة
الأولى ، ولم تأت الا آية واحدة منها فى الدعوة المدنية ، وفى ذلك
إشارة الى أن هذه آيات وردت فى فترة معينة لكى تزيل لبسا معيناً ،
ولو أنها كانت تهدف الى زحمة الشعر أو التقليل منه لما توقفت فى
الفترة المدنية فالشعر لم يتوقف فيها .

لكن اذا كانت الآيات تزيل لبسا ، فينبغى التساؤل فى ذهن من نشأ
هذا اللبس؟ وبناء الآيات الكريمة يشير الى ذلك بوضوح ، وفى أربع
آيات من هذه الآيات الستة تأتى صيغة القول : " بل قالوا " .. ويقولون ..
أم يقولون " وما هو بقول " ومعنى هذا أن هذه الدعوى يحكيها القرآن
على لسان الكافرين ويرد عليهم فالذى خلط بين القرآن والشعر ووصف
الشعراء بالجنون وخلط الشعر بالافتراء بأضعاف الأعلام هم الكافرون ،
والقرآن فى هذه الآيات يورد أقاويلهم ليرد عليهم .

لكن واحدة من الآيات الأخرى ، لاترد على لسان الكافرين ، وهى أيضا تنفى الشاعرية عن الرسول ، بل وتعلن أنها صفة لاينبغى له الاتصاف بها ، وماعلمناه الشعر وماينبغى له " وحول هذه الآية دار حوار كبير بين علماء التفسير والبلاغة ولعل من أدقها ماذهب اليه البلاغى عالم الاعجاز القرآتى ، عبدالقاهر الجرجانى ، لقد ربط عبدالقاهر بين نفى صفة الشاعرية عن ^{الرسول} وبين اثبات الأمية له فى أن كلا الأمرين حالة خاصة به صلى الله عليه وسلم ، قصد بها تأكيد اثبات معنى الرسالة وكونها وحيا معجزا لانبوغا بشريا ، وأن الأمرين أيضا يشتركان فى أنه لاينبغى أن يعمم ماجاء بهما على غير الرسول من المسلمين ، فاذا كانت الأمية مثبتة له لكى تزيد فى تأكيد أن ماجاء به لم يكن عن طريق كتاب قرأه أو اكتتبه ، ومن ثم فهو وحى ، فليس معنى اثباتها له أن المسلميين مطالبون بالاعتداء به فيها ومن ثم بالعزوف عن التعلم ، فكل المبادئ والدلائل فى سلوك صاحب الرسالة وفى القرآن تشير الى عكس ذلك . كذلك الأمر أيضا بالنسبة للشعر . فلو أنه كان شاعرا قبل الدعوة لكان ممن يصيغون الكلمات الجميلة وينشدون الترقى فى مدارجها ولأمكن فى هذه الحالة عند اتيانه بالوحى أن يتسرب الى بعض النفوس الشك فى أن كلام الوحى الجميل الذى أتى به ، إنما هو امتداد لمحاولات الشعر الجميل الذى كان يحاوله ومن هذه الزاوية فقد نفيت عنه الشاعرية تأكيدا للاعجاز دون أن يعنى ذلك نفيا عن غيره أو الدعوة الى عدم الترغيب فى الاقبال عليها أو اكتسابها أو العناية بحمادها رواية وحفظا ودرسا .

على هذا النحو حل العلماء السابقون هذا اللون من وهم التعارض الذى يمكن أن ينشأ فى النفس بين القرآن والشعر وهو حل يمكن أن يؤدي

على المدى البعيد الى فهم العلاقة الدقيقة بين الدين والفن الرفيع
السامى .

إذا كان الجانب النظرى فى الاسلام لا يحمل فى عمقه تناقضا بين
الدين والشعر ، فان السلوك العملى لصاحب الدعوة ولاتباعه الاولين أكد
هذا المفهوم ، فالاسلام فى جانبه العملى كون جماعة لها كيانهما وكان
لابد أن يستعين فى الحفاظ على هذا الكيان بوسائل العصر وأسلحته ،
وكان من أقوى هذه الأسلحة فى القديم الشعر ، فالشاعر كان درعا
لجماعته ومن ثم وجد الى جوار الرسول شعراء مثل حسان بن ثابت وعبدالله
بن رواحة وكان حسان يلقي شعره من فوق منبر المسجد ويقول له الرسول:
قل وروح القدس معك ، ويقول فى مواضع أخرى ان من البيان لسحرا وان من
الشعر لحكمة .

ويظل الشعراء عنصرًا هامًا فى هذه الجماعة فى لحظات السلم ولحظات
الحرب . وفى اللحظات الأولى لتكوين الدولة وفى الفترة التى
بعام الوفود ، عندما كانت المدينة تستقبل وفود القبائل من أطراف
الجزيرة العربية التى تسعى للتعرف على هذا الدين الجديد كانت كل
قبيلة تأتى معها بخطيبها وشاعرها فيتكلمون أمام الرسول وينصت لهم
ثم يدعو من بين المسلمين خطيبا شاعرا لكى يرد على القوم . أما لحظات
الحرب ، فالشعر يحدوها رجزا فى البدء لبث الحميا فى النفوس ، ثم هو
يقوم بدور المعارض للرد على شعراء الأعداء ، وعندما تدور الدائرة
للجيش فالتعبير عن الزهو والفرحة بالنصر فاذا دارت عليه فالكلمات
التي تخفف من ألم الجراح وتمنى بنصر قريب تأتى كذلك شعرا .

لكن الشعر كانت له وظيفة أخرى دقيقة على المستوى العلمى هذه المرة ، وتلك الوظيفة هى التى تشير اليها العبارة التى تنسب الى عبد الله بن عباس ، والتى يقول فيها : " اذا قرأ ثم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب فان الشعر ديوان العرب " لقد ظل الشعر مرجعا شديدا لأهمية فى الدراسات القرآنية على اختلاف مستوياتها . واذا علمنا أن مجال هذه الدراسات اتسع ليشمل ويغطى كل ما يعرف بالدراسات اللغوية والاسلامية اليوم . أدركنا الى أى حد كانت أهمية الشعر وفائدته ، ومن هذه الزاوية اكتسب الشعر - الذى ظن فى البدء أنه يتعارض مع القرآن - أهمية تقترب من قداسة العلوم الدينية ذاتها .

لكن الشعر اذا كان قد أدى هذه الفائدة للدرس الدينى، فقد استفاد هو بدوره كثيرا من دقة التعبير ورقته وسموه فى الذكر الحكيم والسنة الشريفة ، واذا كان يجرى أحيانا تلمس بعض مظاهر التأثير والفائدة على مستوى المفردات والصور، فإنه ينبغى أيضا تلمس هذا التأثير على مستوى الروح العامة والتى يمكن أن تلخص فى السعى الى الجمع بين " العمق والوضوح " لقد نعى الرسول على الثرثارين والمتفهمين والمتشدين ، ولام بعض الناس على أنه يقترب فى كلامه من طريقة سجع الكهان ، وكان نصوص الدعوة كلها تهدف أولا الى التوصيل والى التبليغ وكان ذلك يقتضى نشدان قدر كبير من البساطة والوضوح يتم الوصول اليه دون اخلال بالبلاغة والعمق والاعجاز ، وهذه هى النقطة الجوهرية التى كونت من أدب الدعوة الاسلامية قرآنا وسنة ، نموذجا أثر تأثيرا جوهريا على مسيرة الشعر العربى والأدب العربى ابداعا ونقدا .

الحلقة السابعة

الغزل في العصر الأموي

قدمت في ١٢ مارس ١٩٨٦م

الغزل فى العصر الأموى

تلعب المرأة دورا هاما فى الشعر العربى القديم ، ومع أن دورها فى كل شعر وفى كل عصر لا ينكر الا أن دورها فى هذه الفترة وهذا السن يتضح على نحو خاص ، ويرجع ذلك الى مجموعة من الأسباب تختلط فيها ظروف المجتمع بعناصر الفن . فالشعر العربى ، فى هذه الفترة ، وفى معظم فترات حياته ، كان شعرا غنائيا ، يدور محوره حول التجربة الذاتية وكانت هذه السمة أكثر ظهورا فى عصوره الأولى ، ومن هنا فلقد كانت المحاور البشرية المحيطة بالشاعر وعلى نحو أخص فى لحظات توتره الغنى تصدر عنها أعماله . كانت هذه المحاور هى التى تحظى بنصيب كبير فى اشعاع الشعر ، ينبع منها ويدور حولها ، وكان أهم هذه المحاور هو المرأة .

ولاشك أن ظهور المرأة فى الشعر ، لم تكن صورتها الوحيدة هى " الغزل " فلقد كانت المرأة الأم ، والأخت ، والشرف الذى يحمى ، جزءا من النغمة التى تتصل بنسيج المجتمع العربى وفنه ، لكن المرأة المعشوقة ، والكائن الرقيق الذى ينبت فى الصحراء القاحلة الجافة كجزء من أزهارها النادرة ، يخفف فيها من قسوة الحياة ورتابتها كانت محور شعر الغزل بدرجاته المختلفة منذ العصر الجاهلى ، وشيئا فشيئا يزحف نفوذ الغزل فى المرأة لا ليحتل فقط القصائد الخاصة به ، ولكن ليحتل مقدمة " القصيدة " على نحو عام ، فها هى المرأة حبيب يوقف على ذكره وأشاره ، وتوصف بقايا داره ، وتبكي على ساعات لقاءه ، ويهون الرحيل بعدها فى الصحراء المجدية الحارة ، على ناقة قوية صابرة لكى يلقي الشاعر ممدوحه الذى يحاول أن يتسلى عنده بلقاءه عن مرارة هجر الأحباب ، ومن خلال هذا المدخل الذى يتكرر فى مطلع معظم القصائد ، تأتى المقدمة الغزلية التقليدية للقصيدة العربية وهى مقدمة تستمر سمة للقصيدة حتى مشارف العصر الحديث .

هذا النوع من المقدمات سوف يستمر خلال العصر الأموي أيضا، وسوف يحاول بعض الشعراء تلوينه وتحويله إلى ما يمكن أن يسمى بالفـسـزل السياسي فإذا كان الشاعر القديم حين يفازل في المقدمة محبوبة فانه لا يصرح باسمها وانما يكسوها أحيانا اسما عاما مثل " ليلي " " وسعدى " " وهند " أو يكسوها صفة مثل المحب والحبیب والمعشوق ، ولقد يلاحظ على هذه الصفة غالبا لجوء الشاعر الى ايرادها بصيغة المذكر وكأن منطق الجمال اللغوى يريد أن يمر طيف الحبيبة تحت ستار من تمويه الصيغ بين التذكير والتأنيث ، اذا كان هذا هو الشأن عادة في المقدمة الغزلية ، فان الشاعر الأموي أحيانا ، كان يلجأ الى تسمية من يتغزل فيها تسمية حقيقية ويختارها اسمها من نساء القبيلة التي يعارٍيها أو الجماعة السياسية التي يحاربها .

فالشاعر عبدالله بن قيس الرقيات كان قد انضم الى الزبيريين في محاربة الأمويين ، وكانت قوة الزبيريين في الحجاز تبدو في بعض الأحيان خطرا حقيقيا على دولة الأمويين في دمشق وها هي مجالس مصعب بن الزبير تعقد وينشده فيها شاعره عبدالله بن قيس الرقيات قصائد يفتتحها بالغزل في نساء بنى أمية ، ويتحدث في واحدة منها عن أم البنين زوج الوليد بن يزيد ، يقول :

ألا هزأت بنا قرشية	يهتز موكبها
رأت بي شبة في الـ	س منى ما أغيبها
فقلت : ابن قبـسـذا ؟	وغير الشيب يعيبها
أحدثها فتؤمن لـ	فأصدقها وأكذبها
فدع هذا ولكن حـ	جة قد كنت أطلبها

وإذا كان هذا اللون من الغزل الأموى تشوبه السياسة وتوجيهاتها فلقد عرف هذا العصر لونين آخرين من الغزل ربما كانا رد فعل للسياسة أكثر منها استجابة لها . كان ثقل السياسة قد انتقل فجأة من الحجاز بعد أن كان عاصمة النبوة والخلفاء الراشدين الى دمشق حيث استقر معاوية وخلفاؤه وسط أتباعه ومؤيديه من جنـد الشام وخلف ذلك الانتقال فراغا هائلا ، أرادت له الدولة الأموية أن يمتد ويستمر ، وشاعت ألوان من الطرب والغناء والمتعة أقبل عليها الشباب ، وبدأ فى ظلها شعر الغزل والحب يغطى رقعة أوسع من جسد القصيدة العربية ، لكنه ظل مع ذلك حائرا ، فهو حينما يبدو متأثرا بالقوانين الأخلاقية التى جاء بها الدين الحنيف التى تحدد على ضوء الحلال والحرام سبل التعامل مع المرأة ، ومن خلال تفاعل هذه القوانين مع العواطف الملتهمية نشأ مايسمى " بالحب العذرى " ، وحينما آخر يبدو الغزل متحررا من أى ظل لأى قانون ، فتلقى أشعار المغامرات الواقعة أو المتخيلة فى سفوح الأماكن المتدسة ذاتها ، وخير من يمثل هذا اللون الأخير عمر بن أبى ربيعة كان عمر شاعرا رقيقا ، وكان غزلا متأنقا يمثل نزعه الترف المجازى فى هذه الفترة ، ويمثل مانسميه الآن بالانرجسية وهو الإعجاب بالنفس وشعره يشف بوضوح عن هذه الظاهرة ، فالمرأة هى التى تطلبه ،

والفتيات يشرن اليه حين يسير ، ويخفن من ألا يستجيب لهن :

تقول وعينها تذرى دموعا لها نسق على الخدين تجرى
أمن سخط على صددت عنى حملت جنازتى وشهدت قبرى
أشهر أكله الا ثلاثا أقمت على مصار منى وهجرى

والنزعة الفنية التى تشيع فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، هى الميل الى الشعر القصصى . فالقصيدة عنده تأخذ شكل حكاية تتقدم أطرافها فى نسق تشويقي ، ترضى دون شك ، أذواق المترفين ، الذين يبحثون فى الشعر عن شيء آخر غير الغريب والحكمة المتفردة ، ولنستمع الى جزء من هذه المغامرة الغريبة ، التى قادته لرؤية حبيبته وزيارتها ليلا وسط خيام أهلها فى الحى البعيد ، وكيف أنه كان ينبغى عليه أن يتربح خارج خيام الحى حتى تجيء اللحظة المواتية ، حين يهدأ الصوت ، ويغيب القمر ، ويعود الرعاة ، والعاشق المتميم يتسلل مثل جباب الماء لا يكاد يسمع تردد الأنفاس فى صدره :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيح شبت بالعشاء وأنور
وغاب قمير كنت أرجو غيابـه وروح رعيان ونوم سـمـر
ونفضت عنى العين أقبلت مشيئة الحباب وشخص خيفة القوم أزور
فحييت اذا فاجأتها فتولـهـت وكادت بمكنون التحية تجهـر
وقالت ، وهضت بالبنان فضحتنى وأنت امرؤ ميسور أـرـك أعـسر
أرسك اذ هنا عليك الم تخف رقيت وحولى من عدوك حضـر

ويقضى العاشق جزءا من الليل متسللا على نية أن يعود قبل أن يكشف الصبح سرهما ، ولكن الوقت يمضى ، فلا يحسان الا وضوء الفجر وحركة

اليقظة فى القبيلة تحيط بهما ، ولم يبق أمامهما الا المواجهة أو
الحيلة ، وتختار الفتاة جانب الحيلة تجنباً لكوارث المواجهة وتستشير
أختيها ، فتشير صغراهما بأن يلبس الشاعر العاشق ملابس فتية وأن
يتسلل به حتى يخرجنه دون أن نلتفت اليه :

فكان ردائى دون ما كنت أتقى ثلاث شخوص كاعبان ومعصمر

وكانت وصية الفتيات له بعد أن نجا هذه المرة أن يحتاط فى
المرة القادمة .

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

الحلقة الثامنة

الغزل العذري

قدمت في ١٩ مارس ١٩٨٦م

الغزل العذرى

ارتبط الغزل العذرى بالعصر الأموى ارتباطا شديدا من حيث النشأة وان كانت بعض بوادره قد عرفت فى العصر الجاهلى . وارتبط من حيث الدوافع بذلك النوع من الصراع الذى شهدته نفوس العشاق بين تقاليد البيئة وواقع الهوى ، وهى تقاليد امتد جزء منها فى التراث الاجتماعى وتتغذى جزء آخر على التعاليم الدينية .

كانت التقاليد القبلية . ترى فى أمر حب الشعراء على نحو خاص رأيا يخضع لقانون صارم ، فالحب وخلجات النفوس مباحة . والحديث عنها همسا مسكوتا عنه ، والتصريح بالأمر بين الفتيان قد يمر ، لكن مالا يسكت عليه هو أن يصرح الفتى بهواه شعرا . ساعتها سوف تتناقل الشفاه والألسن حديثه ، وسوف يذيع من الأمر ما كان مكتوما ، وقد تسمع القبائل المجاورة أن ابنة فلان عاشقة وقد تذهب الأقاويل الى أبعد من هذا . وقد يظأطئ شيخ القبيلة الرأس وذلك كله ناجم عن التصريح بالحب شعرا لاعتد الحب فى ذاته ، ومن هنا جاء قانون القبيلة الصارم : من كتب شعرا فيمن يحبها قبل الزواج بها ، حرمت عليه . وكان من الصعب أن يبتعد فتیان الشعراء عن الحب فهم فتیان كالآخرين وربما زادوا عليهم قدرا من رهافة الحس ، وكان من الصعب أيضا أن يمتنع الشعراء عندما يحبون عن أن تفيض مشاعرهم شعرا فالكلمة عند الفنان شفاء يلجأ اليه من لوعة المشاعر ، وكان من الصعب كذلك أن تمتنع القبائل عن أن تطبق قانونها الصارم فالأمر متعلق بالدفاع عن الشرف ، وهو معنى كان يمثل حجر الزاوية فى كثير من تقاليد القبيلة .

وكان لابد إذن أن يكثر الشعراء العشاق الضحايا ، يحبون ، ويصرحون بالحب شعرا ، ويحاولون الاقتران بمن أحبوا فتمنعهم تقاليد القبيلة

من الزواج ، فيقصون العمر محرومين من الاتصال الجسدى ، ويعيشون مع ذلك أوفياء لذلك الحب العذرى ، فتفيض نفوسهم بذلك الشعر الجميل الذى يعد من أعذب ما أنتجته البادية ومن أرق ما حمل رسالة العصر الى بقية العصور وذلك الأدب الى بقية الآداب .

من خلال هذه الزاوية وصلتنا أصوات شعرية جميلة مثل صوت قيس بن الملوح مجنون ليلى ، وجميل بثينة ، وكثير عزة ، وقيس لبنى ، وعروة بن حزام حبيب عفراء ، وهى أسماء تصلنا غالبا وقد اقترن فيها اسم الشاعر باسم حبيبته ، وكأنهما شكلا معا تزوجا فى الأسماء عبر التاريخ الطويل حين استعصى عليهم أن يتزاجوا بالأجساد خلال تاريخ عمرهم القصير ، وذلك لون من التعويض العادل الذى يهبه التاريخ الواعى للفن الجيد .

ذلك اللون من الغزل العذرى ترتبط به عادة " قصة " من قصص الهوى العنيف . وهو من خلال ذلك يتميز فنيا عن ألوان الشعر الأخرى مدحا أو هجاء أو وصفا وحتى عن الغزل العادى ، فالذى يلفت نظر القارئ أو السامع فى هذه الألوان كلها الشعر فقط ، لكنه فى الحب العذرى يلفت الى الشعر وإلى ما وراء الشعر ، الى قصة الحرمان التى أدت اليه ، ومن ثم يكثر الاهتمام برواية هذا اللون من الشعر ورواية قصص الحب الكامنة وراءه ، وكثرة الرواية هذه مدعاة فى ذاتها الى أن يتداخل الجانب الأسطورى مع الجانب الحقيقى فى القصة والشعر معا ، ومن هنا يأتى ذلك التخوف التقليدى الذى أعلنه الدراسون قديما ومحدثين حول مدى الدقة فى صحة بعض قصص الحب العذرى وأشهرها دون شك قصة " مجنون ليلى " .

يقول أبو الفرج الأصفهاني عند تعرضه فى كتاب الأغاني لأخبار

مجنون بنى عامر : وأن أذكر مما وقع الى من أخباره جملا مستحسنة ، متبرئا من العهدة فيها ، فان أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة الى غيره ، وينكسبها من حكيت عنه اليه ، واذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتتبع للعيوب " وهذا التحفظ القديم رده أيضا كثير من المحدثين حتى وصل الأمر الى انكار وجوده قيس وليلى جملة .

والواقع أن هذا النقاش وذلك التحفظ يتناسى حقيقة هامة - هى أننا لسنا أمام شعر فقط ، ولكننا أمام قصص شعرية وجدت من حيث كونها قصة ونصوصا فى تراث الأمة المنتمى الى ذلك العصر ، ومن هذه الزاوية فلا ينبغى اللجوء الى " الحقيقة التاريخية " كثيرا ، لنعرض عليها صحة وجود " الحقيقة الفنية " أو عدم صحتها ، انما مع هذا اللون أقرب مانكون الى الأدب القصصى القديم فى الأمم الأخرى - مع احتفاظ كل أمة بطريقتها - ومع الأدب القصصى الشعرى لا نتساءل ان كان الأبطال قد وجدوا أم لا ، فأبطال " الالياذة " و " والأوديسا " الملحميون ، وأبطال المسرحيات القديمة والوسيطه التاريخيون لا يطرح حولهم سؤال الوجود أو العدم . وانما تطرح أسئلة أخرى حول المتعة الفنية .

من هذه الزاوية فان قصة مجنون ليلى ، وشعره العذرى كما ترويه كتب التراث ، تقدم متعة فنية عالية لاجدال فيها .

كان قيس وليلى طفلين جارين ، ولد الحب بينهما منذ الطفولة المبكرة وكانا يرعيان الغنم معا ، فكثر اللقاء وتمكن الحب .

تعلقت ليلى وهى ذات ذؤابة ولم يبد للأتراب من صدرها حجم صغيران نرعى اليهم ياليت أننا الى الآن لم نكبر ولم تكبر الهيم

ويفرح الصبي حين يرسله أبوه ليطلب شيئا من دار ليلى وتنسنى
الصبية نفسها وهى تستقبل العاشق الصغير ، يهبط ضيوف على أسرة قيس
ليلا فترسله أمه ليطلب شيئا من السمن من بيت ليلى ، وتقوم هى لتفرغ
له فى اناء معه ما يطلبه ويتحدثان وينسيان ويسيل السمن على الأرض
ليغطيها دون أن يشعر العاشقان ، وعندما يذهب ليطلب شعلة من النار ،
تنتهى الشعلة فى يده وتحترق أصابعه دون أن يحس لأن ليلى تتحدث اليه .

ويبدأ الحب يشتعل ، والشعر يفيض عن العاشق :

نهارى نهار الناس حتى اذا بدا	لى الليل هزتنى اليك المضاجع
أقضى نهارى بالحيث وبالمنى	ويجمعنى والهـم بالليل جامع
لقد نبتت فى القلب منك محبة	كما نبتت فى الراحـتين الأصابع

أو يقول :

أعد الليالى ليلة بعد ليلة	وقد عشت دهرا لأعد الليالىا
أرانى اذا صليت بممت نحوها	بقلبي وان كان المصلى ورائيا
ومابى اشراك ولكن حبها	كعود الشجا أعيا الطيب المداويا
أحب من الأسماء ماوافق اسمها	وأشبهه أو كان منه مدانييا

وتتسرب أنباء الشعر العذرى الى القبيلة ، ويتأزم الموقف ويقرر
الأب ألا تكون ليلى من نصيب قيس ، ويضطرب العاشق ويجمع أهله ويذهبون
لخطبة ليلى ، ولكن قرار القبيلة لايرد ، ولكى يقطع الأب كل طريق ،
يسارع فيزوج ليلى الى رجل اسمه ، ورد ، وبلغ الخبر قيسا فجـن وزال
عنه عقله ، وأصبح يخلط فى الكلام ويمشى فى الصحراء ممزق الثياب
يهذى بكلام المجانين ، فاذا ذكرت له ليلى عاد الى رشده وتحدث حديث
العقلاء وروى الشعر .

ونصح بعض الناس أباه أن يحج الى البيت الحرام وأن يجعله يتعلق
بأستار الكعبة ويدعو الله أن يشفيه من حبه . وذهب قيس الى الحج ،
وفى منى سمع رجلا ينادى امرأة اسمها ليلى ، فلما وصل الاسم سمعه خر
مغشيا عليه وأنشد بعد هذا حين أفاق :

عرضت على قلبى العزاء فقال لى من الآن فايأس لأعزك من صبر
إذا بان من تهوى وأصبح نائيا فلا شيء أجدى من حلولك فى القبر
وداع دعا اذ نحن بالخيف من منى فهيج أشواق الفؤاد وما يبدى
دعا باسم ليلى غيرها فكانما أطارا بليلى طائرا كان فى صدرى
وعندما حملوه الى أستار الكعبة ليدعو الله بأن يشفيه تعلق بها
وقال : اللهم لاتشفنى من حب ليلى أبدا . . .

وعاد بعدها هائما على وجهه فى الصحراء : لا يأكل الا ما ينبت فى
البرية ولا يشرب الا مع الظباء اذا وردت مناهلها وطال شعر جسده ورأسه
وألفته الظباء والوحوش فكانت لاتنفرد منه " .

وتختلط الغزال فى عينه بليلى فهو يحدثها قائلا :

، فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

وهو يصور هذا المشهد الدقيق لصراع يجرى أمام عينيه بين ذئب
مفترس وظبية وديعة ، ولا يرى فى الذئب الا غريمة ، ورده الذى أخذ منه
ليلى ، وفى الظبية الا ليلى نفسها ولهذا فهو يطارد الذئب ويطلق عليه
سهما قائلا حتى يشار للضحية الرقيقة :

رأيت غزالا يرتعى وسط روضة فقلت أرى ليلى تراعت لنا ظهرا

فياظبي كل رعدا هينا ولا تخف فانك لى جار ولا ترهب الدهرا
فماراعنى الا وذئب قد انتحى فأعلق فى أحشائه الناب والظفرا
فطوقت سهمى فى كتوم غمزتها فخالطسها مهجة الذئب والنحرا
فأذهب غيظى قتله ، وشفى جوى بقلبى ان الحر قد يدرك الوترا

وهو لا يكتفى بربط مشاعره بالكائنات الحية فى الطبيعة ولكنه
يتجاوز ذلك الى الطبيعة الصامتة ، فهو يتنسم الهواء القادم من نجد
حيث هاجرت الحبيبة ، ونسيم روائح القادمين من هذه الديار ، وهو يرى
السييل المنحدر من أعلى الجبل فتجرى دموعه لأن أيقن أن هذا السييل
مر على واديه قبل أن يصل الى حيث هو :

جرى السييل فاستبكاني السييل اذ جرى وفاضت له من مقلتى غروب
وماذاك الا حين أيقنت أنــــه يكون بواد أنت فيه قريب
يكون أجابا دونكم فاذا انتهى اليكم تلقى طيبكم فيطيب
ولاخير فى الدنيا اذا أتت لم تزر حبيبا ولم يطرب اليك حبيب

ثم هو يطوف مايطوف ويعود الى الجبل الذى كان يرمى عنده الغنم
مع ليلى وهما صبيان ، جبل التوباد ، كان يجيىء الى ذلك الجبل
فيقيم به ، فاذا تذكر أيام كان يطيف هو وليلى به جزع جزعا شديدا ،
واستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحي الشام ، فيقول للناس : أبى
أنتم : أين التوباد من أرض بنى عامر ؟ ويهيم طويلا حتى يصل اليه
فاذا رآه قال :

وأجهشت للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رآنى
وأذريت دمع العين لما عرفتــــه ونادى بأعلى صوته فدعائى

فقلت له قد كان حولك جيرة وعهدى بذاك الصرم منذ زمان
فقال مضوا واستود عوني بلادهم ومن ذا الذى يبقى على الحدشان

على هذا النحو تقدم هذه القصة الشعرية نموذجاً جيداً وممتعاً
لذلك اللون من الغزل الذى تألق فى هذه الفترة وحمل اسم
" الغزل العذرى " .

الحلقة التاسعة

مدخل لدراسة الأدب في العصر العباسي

قدمت في ٢٦ مارس ١٩٨٦م

مدخل لدراسة الأدب فى العصر العباسى

درجت كتب تاريخ الأدب العربى على أن تنقسم ذلك الأدب الى عصور تتوازى مع التغيرات السياسية الكبرى التى مرت بها أنظمة الحكم فى العالم العربى ومن خلال هذه التقسيم الشائع تتوازى العصور الأدبية مع 'العصور الدينية والسياسية' ، فهناك العصر الجاهلى ثم صدر الاسلام فالأموى فالعباسى ، ثم تتفرع العصور بعد ذلك تبعاً لتفرع أنظمة الحكم وتفتت الخلافة فهناك الأندلس فى أسبانيا والفاطمى فى مصر ومن بعده الأيوبي فالمملوكى فالعصر الحديث ، والواقع أن التقسيم على هذا النحو غير دقيق ، فليس هناك توازن حتمى بين العصور السياسية والعصور الأدبية فقد تبدأ الظاهرة الأدبية فى عصر وتمتد فى الذى يليه وعلى سبيل المثال فإن الظواهر الفنية تتشابه كثيراً فى العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام ، وعلى العكس من ذلك يمكن أن يشتمل عصر سياسى واحد على أكثر من ظاهرة أدبية ، وخاصة إذا امتد امتداداً طويلاً كما حدث فى العصر العباسى الذى نتحدث عنه .

" العصر العباسى - ١٣٢ - ٦٥٦ هـ " .

من سقوط الدولة الأموية الى سقوط بغداد على أيدي التتار .

وهى فترة زمنية تجاوزت خمسة قرون وشملت معظم الظواهر الأدبية التى عرفها تاريخ الأدب العربى ، وكبار الشعراء والناشرين الذين يعتز بهم .

ولهذا فقد اتجه كثير من الباحثين الى تقسيم هذا العصر تقسيمات

كثيرة ، هنالك مثلاً التقسيم الى : -

(١) العصر العباسى الأول = ١٣٢ - ٢٣٢ = قوة الخلفاء .

(٢) العصر العباسى الثانى = ٢٣٢ - ٣٣٤ = سيطرة الجنود الأتراك .
أو العصر التركى

(٣) عصر بني بويه = ٣٣٤ - ٤٤٧ = ازدياد نفوذ الشيعة .
أو عصر الدويلات

(٤) العصر السلجوقي = ٤٤٧ - ٦٥٦ = عودة جزء من نفوذ الخلفاء

لكن هذا التقسيم الشانئ يقلل فقط من حجم الفترة الزمنية التي
يشتمل عليها كل عصر ، ولكنه يعيد الربط بين التقسيم السياسي والتقسيم
الأدبي .

ومن هنا فانه يمكن اللجوء مرة أخرى الى تقسيم آخر يحاول
الاعتماد على الظواهر الفنية فى العصر ، ويمكن أن يكون على النحو
التالى :

- (١) عصر ثورة التجديد : بشار وأبو نواس ومن عاصرهما .
- (٢) عصر الحركة المعاكسة : أبو تمام والبحتري وابن الرومى .
- (٣) عصر الاستقرار : المتنبى ، أبو فراس ، أبو العلاء ، الشريف الرضى .

وليست هذه فى النهاية هى الامكانيات الوحيدة للتقسيم ، فهناك
أيضا امكانية النظر الى التيارات الفكرية الرئيسية التى كانت تسود
العصر مثل تيار فكرة المعتزلة أو فكر الأشاعرة أو الأفكار الفلسفية
أو شيوع الثقافة العربية أو الثقافة الأجنبية ... الخ .

وذلك يعنى أن دراسة هذا العصر ينبغي أن تعنى بالوقوف أمام
الظواهر الفنية فيه ، وأن تجمع أشقات الظاهرة لكى تشكل منها كلا :

أهم ظواهر ذلك العصر :

أول مايلفت النظر فى العصر العباسى ، أن الأدب المكتوب باللغة

العربية ، تحول من كونه أدبا يعبر عن الروح العربية الخالصة وحدها
فى العصر الأموى ، الى كونه أدبا يتسع مجاله من خلال دائرتين : -

(أ) التعبير عن الروح الاسلاميــــــــــــــــة : -

ولانعننى بهذا التعبير مايمكن أن يفهم منه من ظلال دينية
واما نعننى به اتساع مجال تعبير الأدب ليشمل الشعوب التى دخلت
الاسلام ولم تكن عربية واتخذت العربية لسانا وأصبح الأدب العربى،
من خلالها وبها يعبر عن مناخ جديد .
وأوضح مثال لهذه الظاهرة ، الاتصال الذى حدث بين الأدبين العربى
والفارسى ، وظهر من خلاله جماعة من الكتاب الفرس من أصحاب
اللسانين ، يكتبون الأدب العربى ويضيفون اليه خلاصة تجاربهم فى
الأدب الفارسى ، وأيضا يترجمون روائع الأدب الفارسى الى العربية ،
ومن أبرز هؤلاء : عبدالله بن المقفع صاحب كتاب كيلة ودمنة
وغيره من المؤلفات والمترجمات التى عكست هواء جديدا فى تشااج
الأدب العربى .

(ب) التعبير عن الروح الانسانيــــــــــــــــة : -

ولم يقف الأدب العربى عند هذا الحد وانما امتد من خلال
حركة الترجمة النشطة الواعية فنقل كثيرا من تراث العالم القديم
الى اللسان العربى ، نقل عن اللغة الهندية فى مجال الرياضيات
رائطب والفلك ، وعن اليونانية فى مجال الفلسفة والنقد وعن
السريانية فى مجال الفكر الدينى ، ومن خلال هذا كله اكتسب

اللسان العربى طاقة كبيرة استطاعت أن تختزن مجمل ثقافة العالم القديم وأن تؤدبها الى الحضارة الأوربية في العصور الوسطى فتتوهج شعلة الحضارة من جديد بفضل حفظ العرب لها ، وقد تم كل ذلك فى اطار العصر العباسى .

(ج) ميلاد وازدهار النثر الأدبى : -

كانت الأمة العربية تعرف الشعر كفن مهيمن على أدبها تحفظه وتتناقله الألسن ويتفق مع طبيعة هذه الأمة غير الكتابية ، وكانت تعرف قليلا من النثر لأن التدوين لم يكن شائعا ، ولأن حفظ النثر واستيعابه ليس سهلا ، فلم يعرف النثر الأدبى عند العرب فى الجاهلية الازدهار ، وقد تقدم قليلا فى العصور الأموى بعد النزوع الى انشاء الدواوين ولكن الميلاد الحقيقى للنثر وازدهاره كان فى العصر العباسى .

كانت كتابات ابن المقفع حول " أدب السياسة " سواء فى كتابة " الأدب الصغير " أو " الأدب الكبير " أو كتابه " كليات ودمنه " الذى ترجمه عن ترجمة فارسية لحكايات بيدبا الهندية ، كان هذا النشاط من ابن المقفع هو بداية النثر الفنى الحقيقى ، وكانت كتابات الجاحظ التى تميزت بطابع خاص يعكس تنوع الثقافة فى عصره ، سواء فى مجال الأدب والابداع مثل كتابة " البيان والتبيين " أو فى مجال العلوم مثل " كتاب الحيوان " أو فى مجال دراسة الظواهر الاجتماعية مثل " كتاب البخلاء " أو فى مجال الدراسات الدينية مثل رسائله الكثيرة التى وضعها فى علم الكلام ،

ومنها " رسالة فى نظم القرآن " كان هذا كله ايدانا بأن الشعر لم يعد يقف وحده فى ميدان الانتاج الأدب العربى ، وأن النشر رمز العلم المدون قد دخل الميدان واحتل مكانته .

(د) ثورة الشعر وتنوع وسائله : -

غير أن الشعر ذلك الجنس الأدبى القديم لم يقف مكتوف اليدين ، وإنما سائر مادخل على العصر من تطور فنى نتيجة لتطور الحياة من ناحية والاتصالها بالآداب الأجنبية من ناحية أخرى ، ولشروع ألوان من الفنون الجميلة بدرجاتها المختلفة ومذافاتهما المتنوعة التى تولدت عن اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب ومعرفتهم لطرائق تمتعهم الفنى .

ولقد ترك ذلك كله إشارة على التطور الكبير فى الشعر العربى خلال ذلك العصر ، فهناك تطور فى استخدام الصورة الشعرية ، ومناقشة لمدى وفاء الصورة فى بنائها القديم لحاجة العصر وثقافته وفنونه ، وقد قاد التطور فى هذا الاتجاه الجماعة التى عرفت " بشعراء البديع " أو بالشعراء المحدثين من أمثال بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبى نواس ، وأبى تمام وعبد الله بن المعتز ، وهناك محاولات التجديد فى هيكل القصيدة سواء من حيث بنائها ، كما حدث فى محاولات أبى نواس من اطراح الوقوف على الأطلال كلازمة تقليدية فى بدء القصيدة ، أو من حيث موسيقاها كمحاولات أبى العتاهية لكتابة الشعر على أوزان غير مألوفة وشورته فى وجه من يذكره بالعروض قوله " اننى أكبر من العروض " وكذلك محاولات الشعراء المولدين لاشاعة ألوان من الأوزان القصيرة ، أو اللجوء الى التنويع فى القوافى خلال القصيدة الواحدة ، ولا يقل

التجديد فى المجالات التى ترتادها القصيدة عن التجديد فى المجالات الأخرى ، وشعر ابن الرومى فى مجمله نموذج على ذلك التجديد فى مجال " الواقع الحى " وشعر أبى العلاء نموذج شان على ذلك التجديد فى مجال " التأمل والفكر " والمتنبى هو قمة النماذج التى أفادت من مجمل محاولات التجديد السابقة عليه ، وارتادت بالشعر العربى فى العصر العباسى آفاقا لم تتح له من قبل .

ان هذا الحديث الشديد الاجمال عن " الأدب فى العصر العباسى " لا يقدم إلا الخطوط العريضة الكبرى لأكبر العصور وأشدها تألقا فى تاريخ الأدب العربى .

الحلقة العاشرة

ترجمة شخصية أدبية

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

قدمت في ٢ ابريل ١٩٨٦م

ترجمة شخصية أدبية

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

فن الترجمة للشخصيات الأدبية فن قديم يمتد في تاريخ الفكر والأدب ويصطنع لنفسه مناهج تقترب حيناً من مناهج التاريخ وحيناً آخر من مناهج الأدب ، وتستقل حيناً ثانياً فتكاد تكون لنفسها علماً مستقلاً هو علم " سير الرجال " ، وتستمد الترجمة مادتها عادة من كتب التاريخ المدونة ومن الروايات الشفهية وتمتد فيما يختص بالترجمة الأدبية فتعتمد على جزء من الإنتاج الأدبي للشخصية التي يجرى الحديث حولها ، وتتفاوت درجة الاعتماد على ذلك الإنتاج من مذهب إلى مذهب آخر ، حتى أن بعض مناهج كتابة السير تدعو إلى الاعتماد الكامل عليه ومحاولة رسم صورة للرجل من خلال إنتاجه ، وبعضها الآخر ينحى الإنتاج جانباً باعتباره يعبر عن متطلبات فنية معقدة لاتعكس بالضرورة حياة الكاتب ، وإنما قد تهرب منها ، وقد ترسم صورة مثالية لم تتحقق أو صورة كان يحلم الكاتب بتحقيقها .

والشخصية التي ندير حولها الحديث اليوم شخصية مزدوجة الأبعاد هي شخصية :

عبدالله بن المعتز

الأمير الشاعر الكاتب

٢٤٧ - ٢٩٦ هـ

فهناك على الأقل ذلك الازدواج الثلاثي في الشخصية ، الامارة والشعر والكتابة ، وهو ازدواج برزت بعض جوانبه في شخصيات تاريخية أخرى ، ولكنها اكتملت على نحو خاص في شجعتة ابن المعتز .

فكثير من الأمراء والملوك اقتربوا من الأدب والشعر بحكم ثقافتهم وبحكم علاقة الحكام بالأدباء وبعض منهم كتب قدرا منه ، وكتب تاريخ الأدب تروى مختارات متناثرة من تأليف الأمراء والشعراء وتنسب أبياتا من الشعر الى معاوية أو عبدالملك بن مروان أو الوليد ولا تكاد تغيب الخفاء الراشدين لكنه الى جانب ذلك يوجد هؤلاء الأمراء الذين تمكنوا من الشعر فلم يعد ينسب اليهم مجاملة أو استكمالا للسرد ولكن باعتبارهم شعراء حقيقيين ، ومن يمكن أن يصنف في عداة الأمراء الشعراء المشهورين :

امرو القيس (الملك الضليل) ، وأبو فراس الحمداني ، (الأمير الأسير) والمعتز بن عباد ، والشريف الرضي ، وفي عداد هؤلاء يأتي عبدالله بن المعتز ، الذي ولد في بيت الخلافة العباسية فأبوه كان خليفه وجده كان الخليفة المتوكل وقد أثرت هذه النشأة عليه تأثيرا خاصا ، جعلت ثقافته واهتمامه وصياغته الشعرية تحمل آثار الترف والقصور ، وأصبح ذلك سمة من سماته فأبياته تفوح منها صور المسك والعنبر والحرير والحرير الكريمة ، وعندما قال أحد الناس للشاعر ابن الرومي معاصره وعدوه التقليدي ، : لم لاتكتب صورا مزهية تصور ابن المعتز عندما يصف الهلال قائلا :

انظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فأجاب ابن الرمي : انما يصف ابن المعتز ماعون بيته فهو أمير وابن خليفة ، ولكنني أصف ماأشاهده فأجيد وانشد ابن الرومي صورته المحكمة :

ان أنس لا أنس خبازا مررت به
يدحو الرقاقة من اللحم بالبصر
مابين رؤيتها فى كفة كـرة
وبين رؤيتها قورا كالقمر
الا بمقدار ماتنداح دائرة
فى لجة الماء يلقي فيه بالحجر

ولقد امتد تأثير الامارة على شعر ابن المعتز ليشمل فقط
طبيعة الصور التى كان ينسجها ، وانما ليمتد فيشمل طبيعة الموضوعات
التى يهتم بها ، فابن المعتز فتى وسيم أمير يستطيع أن يجد كثيرا من
مطالب العيش قريبة منه ، وهو متذوق جيد للموسيقى ، محب للغناء ، ولما
يستلزمه جو الغناء والسماع فى ذلك العصر من حب للشراب وحديث عنه ومن
حب للقيان والمغنيات وحديث يمتد عن حب الجمال بألوانه المختلفة
وشعر ابن المعتز يمتلأ بهذا كله ويسرف فيه أحيانا ، والى جانبه هذه
اللمسة الرقيقة للطبيعة ومظاهرها وهذا التنبيه لأسرارها الدقيقة .

يحكى صاحب الأغانى ، يقول حدثنى جعفر بن قدامه قال ، كنت أسرح
مع عبدالله بن المعتز فى يوم من أيام الربيع بالعباسية فى مدينة
بغداد والدنيا كالجنة المزخرفة ، فقال عبدالله :

حبذا آذار شهرا	فيه للنور اشتشار
ينقص الليل اذا جا	ء ويمتد النهرا
وعلى الأرض اخضرارا	واصفرا واخمرا
فكان الروض وشيى	بالغت فيه التجرا
نقشه آسونسرا	ين وورد وبهرا

وهى صور ترسم جانباً من الطبيعة التي تحيط بابن المعتز فى قصور الخلافة المتسعة .

ولم تكن معرفة عبدالله بن المعتز بالغناء مجرد استمتاع ولهو ، ولكنها كانت معرفة علم دقيق وتتبع للخصائص وكتابة عنها فى بعض الأحيان ، يقول أبو الفرج الأصفهاني فى كتاب الأغاني : " وكان عبدالله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على نغمها وعللها ، وله فى ذلك وفى غيره من الآداب كتب مشهورة ، ومراسلات جرت بينه وبين عبدالله بن طاهر وبين بنى حمدون وغيرهم تدل على فضله وغازاة علمه وأدبه ، ولقد أثر ذلك القرب من الغناء والموسيقى على شعره الذى كان يأتى أحيانا رقيقا قريبا من لغة الحياة يصلح أن يغنى ، فهو الذى يقول :

زاحم كمي كمي فالتويها وافق قلبي قلبه فاستويها
وطالما ذاقا الهوى فاكتويها ياقرة العين ، وياهمى ، ويا...

لكن جانباً آخر من جوانب تأثير الامارة على الشعر تمثل فى تلك الالتزامات السياسية التى تجعل الأمير الشاعر يتتبع المشاكل السياسية التى تحيط ببيت الخلافة ويساهم بالكتابة حولها فالخلافات الفرعية بين الخلافة والجماعات المناوئة للحكم والثوارث الفردية أو الجماعية لأفراد الزنج أو الطالبين أو غيرهم والغزوات التى تشن عليهم أو على أعداء الدولة ، كل ذلك يجد صداه فى ديوان ابن المعتز ربما على نحو أوضح مما نجده عند شاعر آخر لم ينشأ فى قصر الخلافة .

على أن ابن المعتز ظل فى حياته الخاصة مع ذلك يحتفظ بدرجة بينه وبين مشاكل الحكم فى عصره ، فى الوقت الذى تزاحمت فيه الفتن على

بيت الخلافة العباسية ، ولم ينس أبداً أن أباه الخليفة المعتز ، قتل
فى واحدة من هذه الفتن ، فظل مكتفياً بمكانة رفيعة له فى بلاط ابن
عمه الخليفة المعتز .

لكن الظروف تقترب بها من بؤره الفتنة عند ما يموت الخليفة
المقتدى ، ويرى كثير من الناس أن ابن المعتز هو أحق الناس بأن يتولى
الخلافة من بعده ، وينصب ابن المعتز بالفعل خليفة للمسلمين ولكنها
خلافة لم تدم أكثر من يوم واحد ، فقد هجمت عليه الجماعات الموالية
للمتقدر واستطاعت أن تنزع الخلافة منه ، ولم تكتف بذلك ، بل حكمت
عليه بموته شنيعة على عهد قسوة الترك فى ذلك العصر فقد دقت خصيتاه
حيا ثم ترك يموت صبرا وهو لما يبلغ الخمسين ، وهكذا سلبت منه الامارة
أضعاف ما أعطته .

الحلقة الحادية عشرة

مدخل لدراسة الأدب الأندلسي

قدمت في ١٦ أبريل ١٩٨٦م

مدخل لدراسة الأدب الأندلسي

يحتل الحديث عن الأندلس مكانة خاصة فى التاريخ العربى والإسلامى، فهو يمثل فترة ذات طابع خاص فى تاريخ هذه الأمة فترة امتدت منذ عبرت جيوش طارق بن زياد عام ٩١ هـ ، ٧١٠ م المضيق المعروف باسمه ونزلت على الشواطئ الجنوبية لإسبانيا والتقت بجيوش لذريق آخر ملوك القوط وهزمتها الى أن سلم أبو عبد الله محمد بن الحسن آخر ملوك بنى الأحمر مفاتيح قصر الحمراء آخر معقل للمسلمين فى مدينة غرناطة الى فرناندو الرابع فى أوائل عام ١٤٩٢ (نفس العام الذى اكتشفت فيه أمريكا) ولم يستطع الأمير الراحل أن يكتسب دموعه وهو يلقى النظرة الأخيرة على الحمراء فوقف فى الموضع الذى يطلق عليه الآن بالأسبانية " زفرة العربى الأخيرة ، وقف يبكى ، وأمه عائشة الحرة تقول له :

فابك مثل النساء ملكا تولى لم تحافظ عليه مثل الرجال
ظلت هذه الفترة التى استمرت حوالى ثمانية قرون تطل فيها العربية والإسلام على رقعة هامة من أوروبا . ومن خلال هذا الموقع ينتشر روح الحضارة والعلم فتصل الحضارة القديمة بالحضارة الحديثة وترجم خلاصة الفلسفات والمعارف والآداب التى انتقلت من التراث الإغريقى القديم الى التراث العربى الوسيط ثم عبرت البحر الى الأندلس ، حيث كانت جامعاتها قبلة طلاب المعرفة من كل أرجاء أوروبا وحيث تم من خلال هذا الاتصال أحكام الصلة وبناء الجسر الحقيقى الذى قامت عليه النهضة الأوربية الحديثة .

لقد ترجمت أمهات الكتب العربية الى اللاتينية فى الطب بدءاً من القرن الحادى عشر ، فترجم كتاب الطبيب ابن الجزار وكتاب أبى القاسم الزهراوى عن الجراحة ، وترجم كتاب التيسير لأبى مروان بن زهر وظل

مرجعاً في الطب الايطالى حتى القرن السابع عشر وكذلك ترجم كتاب
ابن رشد " الكليات " وكانت علوم الطب في جامعة باريس تدرس وفقاً
للنظريات الاسلامية .

وكذلك كان الشأن في علم الكيمياء الذي كان يسمى أحيانا علم
جابر ، نسبة الى جابر بن حيان صاحب التآليف الأولى منه والتي كانت
تدرس بدورها في جامعات أوروبا .

وسوف يظل التقدم العلمى في مجال البحث والاختراعات مدينا للعالم
الاندلسى عباس بن فرناس الذى عاش فترة عمر قصيرة في القرن التاسع
والذى شغل بالمخترعات فكان أول من صنع آلة لشرفة المواقيت ، وصنع
في بيته قبة تشبه السماء وزودها بالآلات الخفية التي تحدث البسروق
والرعود وجعل في أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر حقيقة ، وانتهى
به الأمر الى فكرته المشهورة عن طيران الانسان تلك التي دفعته الى أن
يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين ويطير في الجو مسافات بعيدة ولكنه
لم يحسن تدبير لحظة النزول على الأرض .

أقول هذا بين يدي الحديث عن الازدهار في الأدب الأندلسى لأن
الازدهار في مجال العلوم لاينفصل عنه في مجال الآداب فهما وجهان لنهضة
واحدة ، وقد قدمت النهضة الأدبية الأندلسية للأدب العربى مجموعة من
الشعراء والكتاب والمؤلفين على امتداد القرون الثمانية كانوا من
أفضل من اعتز بهم الأدب العربى في تاريخه .

فهذا ابن عبدربه الشاعر الذى عاش في القرنين الثالث والرابع
والذى كان يقارن بأبى تمام في المشرق ويمتاز بقوة صياغة الشعر
واتساع مدى خياله ، يقول في وصف خيول جيش الأمير عبدالله :

ومغربة تغبر في النقع كمتها وتخضر طوراً كلما بلها الرشح
تراهن في نضج الدماء كأنما كساها عقيقاً أحمرأ ذلك النضج
تطير بلا ريش الى كل صيحة وتسبح في البر الذي ما به سبح
عليها من الأبطال كل ممارس يرى أن حد الحرب من بأسه مزج
يعدونه الأعداء كرباً عليهم على أنه طلق لنا وجهه السمع

والى جانبه هناك من الشعراء الأندلسيون من يفتن اسمه باسم
شاعر مشرقى مضارع له ، فهذا هو يحيى الفزالي الذي يفتن اسمه عادة
باسم أبي نواس ، ويفتن سلوكه الطريف شخصية شاعرية رقيقة ، وتكتسب
أشعاره وخاصة في فترة عمره المتأخرة سخرية ممزوجة بالمرارة ، فهو
يتحدث عن الحب في فترة الشيخوخة قائلاً :

قالت أحبك ، قلت كاذباً غرى بذا من ليس ينتق
هذا كلام لست أقبله الشيخ ليس يحبه أحـ
سيان قولك ذا وقولك ان الريح نعقددها فتنعق
أو أن تقولي النار باردة أو أن تقولسي المماء يتق
أما ابن دراج القفسطلى من شعراء القرن
الرابع الهجري فهو يقارن في المغرب بالمنبى في المشرق في طول نفسه
وقوة شاعريته وغزارة إنتاجه ، وقد كان ملازماً للوزير الحاجب المنصور
بن أبي عامر الذي يطلق عليه من قبل المؤرخين المحدثين " بسمارك
القرن العاشر " وكانت أوصاف ابن دراج لحروب المنصور أشبه بما صنعه
المتنبى مع سيف الدولة الحمداني في المشرق ، لكن أشعار ابن دراج
دائماً ، يطفئ عليها ذلك اللون من الاحساس بالحنين الى الأهل ولوعة
الغربة حتى في مدائحه للمنصور بن أبي عامر : يقول في إحدى قصائده

اليه متحدثا عن زوجته وأطفاله :

ولله عزمى يوم ودعت نحووه نفوسا شجاني بثها وشجاهـ
وربة خدر كالجمان دموعها عزيز على قلبى شطوط نواهاـ
وبنت ثمان لايزال يروعنـى على النأى تذكارى خفوق حشاهاـ
وموقفها والبين قد جد جدـه منوطا بحبلى عاتقى يداهاـ
تشكى جفاء الأقربين اذا النوى ترامت برحلى فى البلاد فتاهاـ

أما رقة الوزير الشاعر ابن زيدون وأشعاره التى حملتها الى كل
مكان حلت فيه اللغة العربية وأشعار محبوبته ولادة بنت المستكفى .
فهى أشهر من أن يشار اليها ، ومن منا لم تمر بمسمعه يوما هذه النونية
العذبة لابن زيدون :

أضحى التنائى بدिला من ثدانيـنا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بهتم وبنا، فما ابتلت جوانحنا شوقا اليكم ولاجفت مآفينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم آيا منا فغدت سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تآلفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانسدانية قطوفها فجنينا منه ماشينا
لمنعتقد بعدكم الا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلد غيره ديننا
لاتحسبوا نأيكمننا يغيرنا ان طال ماغير النأى المجينا

وحين تودعه معشوقته ولادة بنت المستكفى قائلا :

ودع الصبر محب ودعـك ذائع من سره ما استودعـك
يقرع السن على أن لم يكـن راذ فى تلك الخطا اذ شيعـك

ياأخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك
ان شعراء الأندلس المشهورين أكثر من أن يحيط بهم العد في عجالة
قصيرة من أمثال ابن خفاجة وابن الرزاق وابن عائشة وابن سهل والأشبيلي،
وابن عمار والمعتد بن عباد . ولم يقتصر دور الشعراء الأندلسيين في
إثراء الشعر العربي على الكم الهائل الذي أضافوه إليه خلال
هذه القرون الثمانية وإنما امتد إلى ذلك الغنى والشراء الذي ألحقوه
به سواء في صوره وأخيلته أم في موسيقاه وتنوعها ، وقد امتد هذا
التنوع حتى ساعد في خلق لون موسيقى تميز به الشعر الأندلسي وهو لون
الموشحات الذي يختلف في فنه وتشكيله وموسيقاه عما هو شائع في القصيدة
العربية وتلك قضية تستحق أن تقف أمامها وقفة مستقلة .

كذلك أضاف الأدب الأندلسي إلى تراث الأدب العربي ، ذلك النثر
من النثر الفني الغنى الذي وجد صداه لافى العالم المتحدث بالعربية
فحسب ولكنه امتد إلى ماوراءه مساهما في الإبداع الإنساني العام ومن
أشهر نماذج هذا اللون كتاب " طوق الحمامة " للفقير الظاهري ابن حزم،
وهو الكتاب الذي سير فيه أغوار النفس البشرية في واحدة من أجمل
العواطف وأدقها وهي عاطفة الحب ، بالإضافة إلى أنه كان فيه رائدا
من رواد السيرة الذاتية في الأدب العالمي .

ويضاف إليه في مجال " النثر الإبداعي " كتاب التوابع والزوابع
لابن شهيد ، وهي قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة له في عالم
الجن اتصل خلالها بشياطين الشعراء فناقشهم وناقشوه وحاورهم وحاوروه

وعرض أثناء ذلك بعض آرائه فى اللغة والأدب وكثيرا من نماذج شعره ونثره ، وهو لىون من الأدب ىمثل فى تاريخ الأدب المقارن مكانة هامة تتصل جذوره الى قصة الاسراء والمعراج وتمتد الى أبى العلاء الممرى ويتأثر بها من الأدباء العالميين داننى فى الكوميديا الالهية وملتن فى الفردوس المفقود ، وهو حديث ىحتاج بدوره الى وقفة مفضلية .

الحلقة الثانية عشرة

مدخل لدراسة النقد الأدبي عند العرب

قدمت في ٣٠ ابريل ١٩٨٦م

مدخل لدراسة النقد الأدبي عند العرب

تتشابك دراسة النقد الأدبي مع كثير من فروع الدراسات الأدبية التي تمهد له وتستفيد من نتائجه ، فهناك هذه الصلة القوية التي توجد بين نظرية الأدب والنقد الأدبي ، حيث تعتمد " نظرية الأدب " على الأصول الفنية والخطوط العامة لكل جنس أدبي ، وهي أصول لا تستقر إلا من خلال مناقشات تحليلية قد تستمر على مدى أجيال متتابعة ويسهم فيها النقد الأدبي بدور كبير .

في الوقت ذاته فإن الصلة بين " تاريخ الأدب " و " النقد الأدبي " تبدو صلة حميمة فمؤرخ الأدب لا يستطيع تصنيف الأعمال الأدبية ووضع كل عمل في إطاره تمهيدا لدراسته مع نظائره إلا من خلال المعرفة الدقيقة بالنقد الأدبي ، والناقد الأدبي بدوره لابد أن يضع في اعتباره التاريخ الأدبي للنص الذي يتعرض له ، ومدى إفادة النص من التراث الفني الذي سبقه ، ومدى قدرته على تأويل ذلك ، ثم إن النقد الأدبي من ناحية ثانية يستطيع أن يتنبأ بالمسار الذي يمكن أن يأخذه التاريخ الأدبي في المستقبل من خلال علائم فنية يهتدى إليها ويكشف عنها ويحاول أن يوجه مسار الحركة الأدبية من خلالها ، والعلاقة كذلك بين النقد الأدبي والأدب المقارن تشدد وخاصة في مناهج الأدب المقارن الحديثة التي تود أن تهتدى إلى علائم الروح الفنية الكامنة في آداب الشعوب المختلفة ونقاط الالتقاء بينها ، وسبيلها الأول إلى الاهتداء إلى هذه العلائم يكمن في دراسة النقد الأدبي والاهتمام به .

ولا تقتصر صلة النقد الأدبي على هذه العلوم وحدها ، فهو يمتد بالطبع إلى علوم اللغة بدرجاتها المختلفة ، ويمتد كذلك إلى الفلسفة التي تساعده على توسيع مجال رؤيته وتخطي الحاضر إلى المستقبل ،

وقد عرف تاريخ النقد الأدبي شخصيات ربطت بين النقد والفلسفة ربطاً وثيقاً لعل من أشهرها في القديم أرسطو ، وفي الحديث " سارتر " وعرفت كذلك محاولات جادة لايجاد هذا الربط في تراشنا النقدي .

ومنذ العصر الجاهلي عرفت ألوان من النقد الأدبي ، كانت تتم على أيدى الشعراء أنفسهم في معظم الأحيان وقد أخذ ذلك عدة مظاهر منها :

(١) القصاصد الحولية المحككة : وهو مصطلح ظهر في العمر الجاهلي وأطلق على إنتاج مجموعة من الشعراء ، عرفت بالتدقيق الشديد في قصائدها ، ومراجعتها حتى أن القصيدة كانت تستغرق حولا كاملا ومن هنا سميت حولية ، ومن أشهر من طبقوا هذا النظام أوس بن حجر ، وزهير بن أبي سلمى وابنه كعب والحطيئة .

(۲) الاحتیاط _____ نام :-

كان الشعراء يلجأون الى من يفاضل بينهم وكان الحكم يأخذ لقب " القاضى " ويصدر حكمه بتفوق أحد الشعارين أو النصيين ، ومن أشهر قضايا النزاع ماحدث بين امرئ القيس وعلقمة بن عبيدة حين احتكما الى " أم جندب " زوجة امرئ القيس ، فأنشدها —————
ببيتين فى وصف الفرس ، قال امرؤ القيس :

فلسوط ألهور ولساق دره ولزجر منه وقع أخرج مهذب^(١)
وقال علقمه :

فأدرکهن ثانيا من عنانـــــــــــــــــه يمر كمر الراح المتحلب^(٢)

(١) الألهوب: اجتهد الفرس في سيره ، أخرج: ذكر النعام . مهذب: سريع

(٢) الرائح : السحاب ، المتحلب : المتساقط .

فقلت لزوجها : علقمة أشعر منك لأنك أجهدت فرسك بصوتك وساقك
أما هو فقد أدرك فرسه الهدف دون أن يضربه سوط أو تتبعه ساق .

(٣) الأسواق الأدبية : -

وهي تقليد امتد من الجاهلية الى الاسلام ، ومن أشهر —
أسواق الجاهلية ، سوق عكاظ ، التي كان يجتمع فيها الشعراء
فينشدون ويتلقون النقد ملاحظة لهم أو عليهم من جمهور سامعيهم
أز من كبار الشعراء وقد كان النابغة يجلس في السوق وتضرب له
قبة حمراء ويجتمع حوله الشعراء فيستمع اليهم ويحكم فيهم وقد
امتد هذا التقليد الى العصر الاسلامي حيث كان سوق " المربد
بالبصرة يشهد في العصر الأموي حلقة لجريز وأنصاره وحلقه
للفردق وأنصاره ، يتبادل الشاعر فيها ما عرف باسم " النقائص "
ومن خلال الاستماع تولد الملاحظات النقدية العابرة ، كأن يقول
الأخطل : " جريز يغرف من بحر والفردق ينحت من صخر " .

(٤) مجالس الشعراء : -

كانت مجالس الشعراء في العصر الجاهلي والاسلامي تدور فيها
ملاحظات الشعراء بعضهم على بعض ، وهي ملاحظات لاتخلو من قيسم
نقدية ، ومن ذلك ما يروى من اجتماع وكثير عزة وجدالهما حول شعر
الغزل وكان كل منهما له طريقة خاصة فيه فقال كثير لعمر " انك
تتغزل في المرأة أولا ثم تتركها وتتغزل في نفسك ، أخبرني عن
قولك :

قالت تصدى له ليعرفننا — شـم اغمر به يا أخت فى خف —
قالت لها قد غمرته فأبى — شـم اسطرت فى أثـرى
وقولها والدموع تسبقه — لتفسدن الطواف فى عم —
وعلق قائلا : أترك لو وصفت بهذا حرة أهلك ألم تكن قد قبحت
وأساءت ، وانما توصف الحرة بالحياء والاباء والالتواء والخجل والامتناع .
هذه الأشكال النقدية التى ظهرت فى العصرين الجاهلى والاسلامى ،
بدأت تتسع وتأخذ شكل التأليف العلمى المنظم فى العصر العباسى ،
نتيجة لكثير من العوامل التى طرأت على الابداع الأدبى ذاته فى ذلك
العصر .

كان الشعر قد بدأ يستعيد جزءا من مكانته التى كانت قد اهتزت
قليلا فى أوائل ظهور الدعوة الإسلامية بل وأصبح الشعر عنصرا هاما من
عناصر الثقافة الإسلامية يساعد على حفظ اللغة التى بدأت تهدد فصاحتها
انتشار الدعوة فى مناطق كانت أعجمية واختلاط اللهجات ، وسارعت
القبائل تجمع كل قبيلة شعرها ، وسارع الرواة يجمعون الأشعار القديمة ،
وفى خلال هذا الاسراع ، ظهرت فكرة " الانتحال " أى تأليف شعر معاصر
ونسبته الى القدماء وكان لابد للنقد الأدبى أن يؤدى دوره فى حماية
الشعر من الدس عليه ، وظهر فى هذه الفترة كتاب " طبقات فحول الشعراء
لابن سلام الجمشى ت : ٢٣١ هـ " وناقش الكتاب قضايا هامة ظلت موضع
اهتمام النقاد حتى القرن العشرين ، من أمثال قضية الانتحال والشك
فى الشعر المنسوب الى عاد وشمود باعتبارهما قبيلتين عاشتا فى زمن
شديد القدم الى جانب أنهما كانتا فى جنوب الجزيرة العربية ، حيث
كانت اللغة السائدة هى لغة حمير ، وهى تختلف الى حد ما عن لغة مضر
فى الشمال .

وبالإضافة الى ذلك يتنبه الكتاب الى أهمية عنصر الزمان ، فيقسم الشعراء الى طبقات ويجعل للجاهليين طبقاتهم وللإسلاميين كذلك ويشير الى فكرة القدماء والمحدثين وضرورة أن يعطى كل فرصته وهى فكرة سوف يطورها من بعده ابن قتيبة ، ويشير كذلك الى تأثير المكان فى الشعر والى تأثير الظروف كالحروب على غزارة الانتاج الشعرى .

من زاوية أخرى تدور معركة التجديد فى الشعر العباسى يقودها " الشعراء المحدثون " من أمثال : بشار بن برد ، أبو نواس ، مسلم بن الوليد ، أبو تمام ويشور جدل كبير حول مدى " الحداثة " فى الصور التعبيرية التى أدخلوها الى مجال الشعر العربى ، وفى هذا الاطار يظهر : " كتاب البديع لابن المعتز ت : ٢٩٦ هـ " .

يرجع فيه مؤلفه من خلال منهج نقدى بلاغى الى أصول التراث العربى فى القديم فى الجاهلية والاسلام ليكتشف أصول هذه الصور التعبيرية فيه وليسجل أن المحدثين لم يزيّدوا على أن بالغوا فى استخدامها ولأن يتوقف هذا الجدل حول " الجديد والقديم " وإنما سوف يتذكر حـول شخصيتين يمثل منهما اتجاها وهما " أبو تمام والبحترى ، ويظهر كتاب : " الموازنة بين أبى تمام والبحترى للأمدى ت : ٣٧١ هـ " لـكى يقدم نوعا من النقد المقارن يعرض فيه صاحبه أنصار حجج كل ^{من} الشعارين ، ثم يوازن بين شعريهما وان كان الأمدى يميل الى جانب البحترى قليلا . ولاينتهى هذا القرن الرابع حتى يظهر كتاب ، " الوساطة بين المتبنى وخصومه للجرجاني ت : ٣٩٢ " وهو يمتد فى مناقشته الى أعماق التراث ، فيقف أمام شعراء كابن نواس وابن الرومى وأبى تمام وأمام قضايا كالشعر والفلسفة والسرقات . ويعلن أن اهتمامه بمحاسن الشاعر سوف يفوق اهتمامه بعيوبه .

الحلقة الثالثة عشرة

نظرية الأسلوب في البلاغة العربية

قدمت في ٧ ماي و ١٩٨٦م

نظرية الأسلوب فى البلاغة العربىة

استقرت دراسات البلاغة العربىة القديمة فى ثلاثة فروع متميزة ،
تحمل أسماء علوم ثلاثة هى :

علم المعانى ، علم البيان ، علم البديع .
وكانت هذه الفروع تقابلها ثلاثة مجالات فى دراسة التعبير الأدبى هى
مجالات :

الأسلوب والتركيب ، التصوير ، التحسين .
واذا أمكن القول بأن دراسة التصوير التى اهتم بها علم البيان ،
ودراسة التحسين التى اهتم بها علم البديع قد وجدت اهتماما كبيرا من
علماء البلاغة الأقدمين ، فانه يمكن القول بأن دراسة الأسلوب أو
التركيب قد وجدت اهتماما مقدسا من هؤلاء العلماء لأنها اتصلت فى بعض
مراحلها بدراسة هدف دينى وهو " الاعجاز القرآنى " وفى ظل هذا الاهتمام
ولد " علم المعانى " وولدت كذلك النظرية الجمالية التى تقف وراءه
والتى تعد من أدق النظريات النقدية اللغوية سواء فى تاريخ الفكر
العربى ، أو التفكير النقدى العالمى ، وهى تلك النظرية التى عرفت
باسم :

" نظرية النظم لعبدالقاهر الجرجانى " .

وتعود قصة النظرية التى هى أساس علم المعانى ، الى بحوث علماء
التوحيد وهو علم العقائد حول السر الذى يكمن وراء روعة الأسلوب
القرآنى فيجعله معجزا لايرقى اليه مستوى الكلام البشرى أيا كانت روعته ،
ولقد كثرت الدراسات حول هذه النقطة ، وانتهى عبدالقاهر وهو عالم من
علماء الأشاعرة الى تقليب الفروق الممكنة بين الكلام الالهى والكلام
البشرى ، فرأى أن القرآن لا يختلف عن الكلام البشرى ، لافى حروفه ولا فى
كلماته ، ولا فى المعانى الجزئية للكلمات ، ولا يلجأ الى الغرابة ومع

ذلك فقد تحدى أعداءه أن يأتوا بآية واحدة من مثله فعجزوا ، وينتهى
عبدالقاهر الى أن بعض السر فى اعجاز القرآن ، يعود الى ماسماه
نظرية النظم وأقام على أساسه علم المعانى .

وتتلخص هذه النظرية فى أن لكل تركيب معانى نحوية يرتكز عليها ،
واللغة أودعت فى كل صيغة من صيغها قوة معنوية معينة ، يمكنها التعبير
عن جانب معين من جوانب النفس ، والبلاغة العالية عليها أن تدرك
ليس فقط الطاقة الكامنة فى كل صيغة ، ولكن الى جانب ذلك تدرك أفضل
امكانيات التناسق والنظم بين الصيغ المتجاورة ، ونتساءل الآن :

" مامعنى الطاقات والمعانى الموجودة فى الصيغ " :

نحن ندرك أن الكلمة مثلا يمكن أن تكون فعلا أو اسما أو حرفيا ،
ولكل قسم جانب من جوانب المعنى فالفعل يتصل بالحركة والتغير والاسم
يُنصَل بالشبث والحرف يتصل بالربط ، لكن هذا التقسيم العام تدخل
تحتة تفريعات كثيرة جدا ، فان كان الفعل حركة ، فهناك فرق بين الماضى
والمضارع ، وبين المبني للمجهول والمبني للمعلوم ، وبين المتعدي
واللازم وإذا كان الاسم شبثا ، فهناك امكانيات كثيرة داخله ، فهناك
النكرة والمعرفة ، والمعرفة بدورها تنقسم الى الضمير والاشارة والموصول
... الخ ولكل واحدة قيم معنوية فى التعبير .

لكى تؤدي البلاغة مهمتها فى دراسة الأسلوب والتركيب ، وقفت
بالتفصيل أمام المعانى الخاصة لكل واحدة من هذه الأقسام - فيما عرف
فيما بعد باسم علم المعانى ، لأن هذا العلم - كما قلنا - بدأ فى
خدمة دراسات الاعجاز القرآنى الكريم فى الكتاب الذى سماه عبدالقاهر

" دلائل الإعجاز " فقد حرص في هذا الكتاب على أن يقدم بعض النماذج التي يشرحها ويبين الإعجاز فيها على ضوء هذه النظرية ، ولكن نماذجها كانت جزئية وسريعة ، وقد حاول بعض العلماء من بعده أن يهتموا بالتفسير البلاغي للقرآن الكريم على ضوء هذه النظرية ، كما حدث في : " تفسير الكشاف للزمخشري " ، ولقد ازداد الاهتمام بهذا المنهج عند المعاصرين بدءاً من تفسيرات الشيخ محمد عبده ورشيد رضا وحتى الآن .

ونود أن نقف أمام آية قرآنية وأن نحاول أن نقدم لها تحليلاً بلاغياً على ضوء علم الأسلوب والتراكيب المتمثل في نظرية النظم ، وهي قوله تعالى :

" وقيل يا أرض ابلغي ماءك ، وياسماء أقلعي ، وغيبني الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين " هود (٤٤) ولقد نزلت هذه الآية الكريمة في معرض الحديث عن انتهاء الطوفان بعد أن أدى مهمته وعودة الحياة إلى حالتها الطبيعية ، وهو موقف أريد له أن يتم بأقصى قدر من السرعة ، كما تم الطوفان نفسه بسرعة فائقة ، فكيف يمكن أن نقف أمام أسرار التركيب من خلال فكرة النظم ومبادئ علم المعاني :

لنبدأ ، بالنظر إلى الأفعال التي تشتمل عليها الآية ، وسوف نجدها

على النحو التالي : خمسة أفعال ماضية هي :

قيل ، غيبني ، قضى ، استوت ، قيل .

ثم فعلى أمر هم — :

ابلغي ، أقلعي .

ولاتوجد أفعال مضارعة ، والملاحظة الأولى على الأفعال الماضية الخمسة ، أن أربعة منها مبنية للمجهول وأن الفعل الوحيد المبني للمعلوم فيها هو " استوت " ليس له فاعل ظاهر .. والتأمل فى المبني للمعلوم يرينا أن هناك طرفين هما المرسل والمستقبل ، وأن التركيز عليهما معا ، أما المبني للمجهول فان التركيز يتم فيه على عنصر الاستقبال فقط ، والضوء هنا يتسلط على الأرض موضع الطوفان ويبقى الذى يصدر لها النداء مهيبا غامضا ، هل هم جنود الله ، الملائكة ، أشياء خفية من جنوده لانعرفها .

تتكون الجملة الأولى

" وقيل يا أرض ابلغى "

من ثلاثة عناصر نحوية : القول ، والنداء ، والأمر ، والعناصر الثلاثة توجه أساسا للعقلاء ، ولكنها فى هذه الآية تحيط بكائن غير عاقل وهو هنا اشارة الى أن كل مافى الكون خاضع لأمر الله والى أن العاقل يستوى مع غير العاقل فى توجيه الأمر والنداء والقول اليه .

إذا تابعنا بقية الأفعال المبنية للمجهول فى الآية وجدنا سياقها جميعا يخدم هدفا واحدا . هو سرعة عودة الحياة الى طبيعتها ، فهناك فرق فى السرعة بين غيض الماء وغاضى الماء ، مثل الفرق بين جف التوب وجفف الثوب ، ثم هناك ذلك العموم المكتسب من التعبير ، وقضى الأمر " بمعنى : نضاعل معرفا بالآلف واللام ، ومعنى دقيق فى عدم ذكر الفاعل فى واستوت على الجودى وهو يعود الى الفلك قبله وفكره الوقوف أمامه تفصيلا مع أنه داخل فى معنى الأمر العام ، ثم هذه المقارنة المعتمدة على تكرار الفعل قيل مرة فى بداية الآية ومرة فى نهايتها وكأنهما

لوحتان متقابلتان فى فناء واسع أو عمودان متشابهان فى بناء معمارى
... الخ . وليلاحظ أن قيل الأولى ارتببت بكائن غير عاقل وجه اليه
القول فاستمع وأطاع ، وأن قيل الثانية وجهت لكائن عاقل وجه اليه
القول فعصى ، فقيل له " بعدا " وفى هذه المقابلة امكانيات لانهاية
لها للتأمل .

نعود الى فعلى الأمر فى الآية ، وهما " ابلغى " و " اقلعى " ،
ولنلاحظ أن الموقف هو موقف إنهاء الطوفان وعودة الحياة الى طبيعتها
والحرص على أن يتم ذلك بنفس السرعة والقوة التى تم بها الطوفان ،
ولننظر فى دقة كيف يتوازى هنا رد الفعل مع الفعل فى احكام بالغ ،
ولننظر كيف حدث الفعل فى نزول الماء من السماء وانفجاره من الأرض
فى وقت واحد ، كما صورته الآية الكريمة .

" ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر (١١) وفجرنا الأرض عيونا
فالتقى الماء على أمر قد قدر " (١٢) سورة القمر .

لقد تفجر الماء من الأرض ولم يقل " تسرب " ولا سال ولا خرج " ومن
أجل هذا لم يكن رد الفعل ، هو توقفى " ولا " امتصى " ولا " اشرى " ،
وانما جاء " ابلغى " لكى يتوازى مع " فجرنا " فى القوة ويختلف فى
الاتجاه ، ونفس الملاحظة مع الماء الهابط الذى قيل فيه ، فتحنا أبواب
السماء . فلم يقل " أمسكى " أو " كفى " وانما قيل " اقلعى " وحتى
لم يقل " اقلعى عن " وكان الفعل يوحي هنا بفكرة اقلاع السفينة عندما
تأخذ اتجاهها مضادا للشاطئ ، وكان خيوط الماء الهابطة من السماء
لا تتوقف فحسب وانما تأخذ اتجاهها مضادا فتعود من حيث أتت .

هكذا يحاكم من هو علم الحاني، فتطلبه القيم النورية للدولاء
والامر والبناء للمجهول، لتعرف في الحذف، انهم ينتمون بعضهم
اسرارهم معجزة، وانهم يحاول دائما ان ينظم ذلهم
الابواب الاربابي المميز.